

### حياة ابن الرومي

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومي متفرقًا في كتب الأدب والتاريخ، لم نترك منه إلا نبذة قليلة تجي في مواضعها من فصول هذا الكتاب، وإلا الفضول الذي لا يتظم في مادة الترجمة ولا يزيدنا علمًا بالرجل أو بأدبه وشعره.

وكل هذا الذي عثرنا عليه وما يشابهه فلي مادته لا يجزئ في ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية. لأنه مفرط الزيادة في مواضع ومفرط النقص في مواضع أخرى، وبين أجزائه فجوات بعيدة لا تترك خلوعًا، ولا خيلة لنا الآن في ملئها. فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل. وعلى هذه القلة في الأخبار التي بين أيدينا لا نراها تسلم من الخطأ حينًا ومن المبالغة أحيانًا. فنحن - على حد المثل الذي اخترناه - كمن يؤتى له بعظام ناقصة ليبنى منها بنية جسم كامل، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لا تدخل في بنية الجسم الذي يراد تركيبه!

إلا أن ابن الرومي يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست في غيره من الشعراء: هي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره.

فما من أحد له شأن في حياته إلا وجدت اسمه في ديوانه ممدوحًا أو مهجوعًا أو موصوفًا أو مردودًا عليه، وما عاب أحد مشيته أو أكله أو لبسه العمامة أو طريقته في النظم إلا كان لذلك خبو مقيد في ديوانه، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهي طعامًا أو فاكهة إلا وذلك معروف من شعره قبل أن يعرف من نوادر المتحدثين عنه، ومما خامر طويته خلق محمود أو مذموم إلا شهد به على نفسه كأنه في حرج من أمر كتمانها.

أقر على نفسى بعيبى لأننى أرى الصدق يمحو بينات المعايب  
لؤمت لعمر الله فيما أتيته وإن كنت من قوم كرام المناصب  
ولا بد من أن يلؤم المرء نازعاً إلى الحما المسنون ضربة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصدق  
المقرون بإظهار العيوب، فيقول فى أصرح عبارة:

وإنى لذو حلف كساذب إذا ما اضطرت وفى الأمر ضيق  
وهل من جناح على مرهق يدافع بالله ما لا يطيق؟!  
ويقول فى تسجيل حرصه وجبنه:

وأصبحت فى الأتراء أزهـد زاهد وإن كنت فى الأتراء أرغب راغب  
حريصاً جبناً أشتهى ثم انتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب  
أخاف على نفسى وأرجو مفازا وأستار غيب الله دون العواقب  
ألا من يرينى غايى قبل مذهبى ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم أن أناساً سيعيون مجونه فى مجلس الشراب ويرون أنه لا يليق  
بما يدعى من العلم والوقار فيسيبهم إلى ذلك ويقول:

وأرى أن معشراً سيقولو ن سخيـف من الرجال لعوب  
أين عنه وقار ما يدعيه من علوم لحاملها قطوب  
ولعمرى أن الحكيم وقور ولعمرى أن الكريم طروب

ويحس ديبب الشيخوخة فى مآرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى أن  
يفوته تسجيل ذلك كأنه محاسب عليه معاقب على تفويته، فيقول لقراءته:

اكتهلت همتى فأصبحت لا بهـج لاشيء كنت أبهج به  
وحسب من عاش من خلوقته خلوقه تعتريه فى أربه

وهكذا فى الصغائر والكبائر، وفى وقائع العيش وخواطر السريرة،  
وفى ما يلقى به الناس به الله .

وقد تجد فى الشعراء من تعرف وقائعه من قراءة شعره، ومن تستطيع  
خلاتقه من ثنايا كلامه، ولكن ابن الرومى لا يحوجك إلى التعرف  
والاستطلاع لأنه يغنيك عن الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة نفسه وتقيد  
شواذر فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما هو رقيب على بواطنه  
وظواهره، وكأنما أعطى نفسه لي تجربها ويقيد تجاربه فيها! فكان ديوان شعره  
كناشة الرقابة أهداها ليحصى فيها كل ما يحصيه الرقيب الحسيب .

هذه الخصلة فى الشاعر تعوضنا كثيراً ما ضيعته التواريخ من حوادثه  
وأوصافه . فعلى ما جاء فى ديوانه نعتمد فى تصحيح الأخبار المسطورة  
وتكميلها على وجه نستوفى به الترجمة جهد المستطاع، فهو حسبك من  
مترجم حياته وصافه لحقيقته، ولولا أن الشعر لا يسجل الأرقام ولا يتقصى  
كل ما فات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من رواية لا تحتاج  
بعده إلى تدوين رواية . .

### أصله ونشأته

" ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريح الرومى يوم الأربعاء بعد  
طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد فى  
الموضع المعروف بالعقبة ودرج الختلية فى دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن  
المنصور . "

وقد رجعنا إلى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجرى والتاريخ الميلادى  
والقبطى فوجدنا فى كتاب " التوفيقات الإلهامية " لصاحبه محمد مختار باشا  
أن أول رجب من تلك السنة يوافق يوم الثلاثاء الذى يقع فى العشرين من  
شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية، وفى السادس والعشرين من شهر بؤونة سنة

٥٢٢ قبطية. فالיום الثانى من رجب هو يوم أربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذى لم يختلف فيه مؤرخوه

وكان ابن الرومى مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور، وجعفر هو الابن الثانى للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر.

ولا يدع ابن الرومى مجالا للشك فى أصله الرومى فإنه يذكره ويؤكداه فى مواضع شتى عن ديوانه كقوله:

ونحن بنو اليونان لنا حجي ومجد وعيدان صلاب المعاجم  
وقوله فى مدح بعض مواليه من بنى العباس:

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى عنه قمن  
وقوله فيهم:

مولاهم وغذى نعمتهم والروم، حين تنصنى، أصلى  
وغير ذلك كقوله:

قد تحسن الروم شعراً ما أحسته العريب

و: آبائى الروم توفيل وتوفلس ولم يلدنى ربعى ولا شـبـث

و: يا بنى السمرى قد أزمتمكم حرمة الروم ويحكم فاحفظونى

و: إذا ما حكمت الروم أهلى فى كلام مصرب كنت أهلا

و: إذا الشاعر الرومى أطرى أميره فناهيك من معرى وناهيك من مطر

و: إن لم أزر ملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك يونان

بل إن تعددت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس ساسان

أو كقوله وهو كما تقدم فى نسب أبيه وأمه:

كيف أغضى على الدنية والفرس خؤلى الروم أعمامى  
واسم جده مع هذا جريح أو جورجيس وهو اسم يونانى لا شبهة فيه.  
فلا معنى إذن للشك فى أصله ولا ينبغى الالتفات إلى من قال أنه سمى ابن  
الرومى لجماله فى صباه.

## أبوه

ولم يرد لأبى الشاعر ذكر خاص فى ديوانه إلا حيث يقول من قصيدة  
بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه:

وكم من أب لى ماجد وابن ماجد له شرف يربى على الشرف المربى  
إذا أمطرت كفاه بالبذل نورت له الأرض واهتزت رباها من الخصب  
وإلا حيث يقول:

شاد لى السور بعد توطئه الأس أب قال: أنت للشرف

والبيتان الأولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر  
التي كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورثاء وهجو وفخر ونحوها،  
فليس فيه خبر ولا رواية ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التي يعالجها  
الشاعر المعاصر لتصوير الأطوار النفسية ووضع الأمثال على لسان الحال ثم لا  
يعنى بها الأخبار عن نفسه وأن جاءت بضمير المتكلم. وقد كان الشاعر القديم  
يأبى أن يخلو ديوانه من باب من أبواب الشعر المعروفة ويأنف أن يظن به  
التقصير فى واحد منها، فهو لهذا يشب ويفخر ويقول فى الفخر ما يهول  
وقعه لا ما يصدق خبره! والفخر على هذا الاعتبار عمل فنى يؤخذ على هذا  
المعنى ولا يستمد منه التاريخ أو يرجع إليه فى تقرير الوقائع.

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين فى الفخر والإشادة بالنسب من  
ناحية "الفن" لا من ناحية "التاريخ". إلا أننا نستخلص منه أن أباه كان  
يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والأدب

كثيرون من أبناء الموالي وارتفعوا إلى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمسجالة ومعاشرة العظماء المتأدبين، وكان أبوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الرواية الضليع فى اللغة والأنساب، فكان الشاعر يختلف إليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحده ذهنه، وحدث الشاعر عنه فقال "أنه كان إذا مر به شىء يستغربه ويستجيده يقول لى يا أبا الحسن ضع هذا فى تامورك<sup>(١)</sup>".

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم ييفع، لأنه لم يرثه حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبى فى المكتب<sup>(٢)</sup>، ولأنه كان يسمى أخاه "والدأ" كأنما كان عليه فضل تربية كفالة.

## أمه

وقد علمنا أنه أمه كانت فارسية من قوله "الفرس خوئلى والروم أعمامى" وقوله "فلم يلدنى أبو السواس ساسان" بعد أن رفع نسبه إلى "يونان" من جهة أبيه، ولا يخفى أن انتماءه إلى ساسان لا يقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وإنما هو كقول المصرى اليوم أنه من أبناء الفراعنة، ولا

(١) معجم الأدباء الجزء السادس ص ٤٧٤.

(٢) جاء فى ديوانه أنه قال الأبيات الآتية فى هجو غلام هاشمى يسمى جعفر وهى أول ما قاله:

ب فما فيك من خلة تمدح	أجعفر حزت جميع العيو
يخيله بالضحى صحصح	كلامك أكذب من يلمع
وروحك فى هضبة أرجح	وحلمك أطيح من ريشة
اق فى مقلتى عاشق أقيح	وروجهك من وجه يوم الفر
ولا فلى ممالك لى مترح	فما فى حياتك لى مفرح

ونستغرب نحن أن تكون هذه الأبيات أول ما قال ولكنها لا نستغرب أن يقولها فى المكتب لأنهم كانوا يمكنون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومى شاعراً مجيداً وهو دون العشرين.

علاقة فى النسب بينه وبينهم وربما كانت أمه من أصل فارسى ولم تكن فارسىة قحا لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح، لأن عمله بالفارسية - كما سأتى - لم يكن علم رجل نشأ فى حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها.

وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول فى رثائها:

أقول - وقد قالوا: أتبكى كفاقد رضاءاً، وأين الكهل من راضع الحلم  
هى الأيام يا للناس جرعت فقدها ومن بيك أما لم تدم قط لا يدم  
وكانت تقية صالحة رحيمة كما يؤخذ من أبياته فى رثائها:

لقد فجعت فيك الليالى نفوسها بمحييه الأسحار حافظة العتم  
ولم تخطئ الأيام فيك فجعية بصوامية فيهن طيبة الطعم  
وفات بك الأيتام كناقية دفىء عليهم ليلة القمر والشيم  
وجعلنا وأفرادك غير فريدة من البر والمعروف والخير والكرم  
فلا تصدمنى أسس المحل فطالما عكفت فأست المحاريب فى الظلم  
وجزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله:

إلا من أراه صاحباً غير خائن إلا من أراه مؤنساً غير محتشم  
إلا من تلىنى منه كل حالة أبر برت بذى شمعت يثلم  
إلا من إليه اشتكى ما ينوبنى فيفرج عنى كل غم وكل هم  
نيا ناظرى يا أم عن كل منظر وسمى عن الأصوات بعدك والنغم  
وأصبحت الآمال - مد بنت والمنى غوادر عندى غير وافية الذمم  
وصارمت خلانى وهم يصلوننى وقد كنت وصال الخليل وإن صرم  
وآسنى فقد الجليس وأوحشت مشاهدة نفسى، ولم أدرما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها، فهو يقول إذ يرثيها له كان له جناحان  
من عطفها وعطف أمه

أراني وأمي بعد فقدان أختها وإن كنت في رفة بها وصلاح  
كفرخ قطاه الدو بان جناحه قباء إلى حصن بفرد جناح

### أخوه

ويظهر أن أويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى ابا  
جعفر، وهو أكبر منه لأنه يقول: "بأخي بل بوالدي بل بنفسى" وهو يتفجع  
بذكره، وشقيقه لأنه يقول في موضع آخر:

بأخ شقيق بعهد أم برة بالأمس قطع منهما أقرانه  
ويذكره بمثل ذلك في غير موضع.

وكل ما وصل إلينا عن هذا الأخ قصة جاءت في ديوان الشاعر نعلم  
منها أنه كان أديباً "وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة، بعث به آل أبي شيخ  
أصدقاؤه وقالوا: عزلة شؤمك، وكان بين آل أبي شيخ وابن سعد أن مؤدب  
المؤيد مودة فخرجوا إليه في أيام المؤيد فأقاموا مدة، وكان من المؤيد ما كان  
وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر يولع بهم ويقول: أنا شؤمى عزال  
وشؤمكم قتال وسيأتيكم في هذا نظم على بن العباس، يعنى أخاه، ومن  
ذلك النظم قوله:

أنا شؤمى فيما تقولون عزا ل ولكن شؤمكم قتال  
بالذى أدرك المؤيد منكم وابن سعدان تضرب الأمثال  
زرتموه والصلحات عليه مقبلات فأدبر الإقبال  
أن شؤمًا حلت به عقدة الم لك لشؤم تزول منه الجبال

ونعلم من هذه القصة أن محمداً عاش إلى سنة اثنتين وخمسين ومائتين

وهى السنة التى قتل فيها المؤيد، وكان ابن الرومى فى تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين. فالأرجح أن محمداً قد عاش بعدها بضع سنوات، لأن الشاعر ذكره فى رثاء أمه حيث قال: "أقاسى وصنوى منه كل شديدة" أى ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين. لأنه كهلاً حين ماتت أمه كما مر بنا فى رثائها، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة إلا أن يكون لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام

ونرى فى موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لأخيه رئيساً غضب عليه، وكان أخاه مات وهو يعمل فى خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بنى طاهر المشهور فى دولة بنى العباس. فإن الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخا شقيقاً مات بعد أم برة:

فليحيه الملك الهمام فلم يفت      محياه قدرته ولا سلطانه  
وحياته لى ان أقوم مقامه      وأسد من دار الأمير مكانه  
فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل فى دار عبيد الله محل أخيه<sup>(١)</sup>. والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤيد وأنه كان على شىء من الأب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة.

(١) نقول هذا ترجيحاً لا تحقيقاً لأن القصيدة مبدوءة بهذا البيت:

أمسى دمشقى الأمير ودهره      ملق عليه بركة وجرانه

فما معنى تلقيت ابن الرومى نفسه بالدمشقى فى مطلع القصيدة؟ أكان ذلك لقبال عند الأمير؟ يجوز. وتكون النسبة إلى الدمشقى وهو الرجل السريع اليدين المنجز عمله، ولكننا لا نعلم من أخبره ما يؤيد هذا التقليب، وهناك دمشقى صديق لابن الرومى هو الأديب "أبو العباس أحمد بن القاسم بن الخليل الدمشقى" عاتبه الشاعر لتعاليه عن معونته فقال:

يا أيها المتعالى عن معونتنا      غنى بما فيه من ذهن ومن أدب  
لو استعنت بنفس غير أنفسنا      أو غير نفسك قابلناك بالغضب=

وقد حزن عليه ابن الرومي حزناً طويلاً ملحاً بقى يعاوده إلى آخر أيامه، فلم يفتأ ذكره ويعيد ذكره في شعره إذا مدح أو عتب أو استعبر، ومن ذاك أنه قال يرثيه:

وتسئلينى الأيام لا أن لوعتى      ولا حزتى كالشئ ينسى فيعزب  
ولكن كفانى مسلماً ومعزياً      بأن المدى بينى وبينك يقرب  
وقال لصاحب كان يحسده ويغرى به:

أيها الحاسدى على صحبتى العس      ر وذمى الزمان والإخوانا  
ليت شعرى ماذا حسدت عليه      أيها الظالمى إخوانى عياناً  
أعلى أننى ظمئت وأضحى      كل من كان صادياً رباناً  
أم على إننى ثكلت شقيقتى      وعدمت الثراء والأوطان  
وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله:

أنا ذاك الذى سقته يد السق      م كئوساً من المراد رواء  
ورأيت الحمام فى الصور الشن      ع، وكانت لولا القضاء قضاء  
ورماه الزمان فى شقة النف      س فأصمى فؤاده أصماء

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجلى عن مسكنه:  
فيه عاقانى الإله من الشد      ككوفك البلاء عنى كبوله  
بعد جهد حملت سنة ضرورياً      ليس أنقاهن بالمحمولة  
ومصاب يشقه النفس منى      ضمن الجسم سقمه ويحوبه

=لكن غنيت بنفس لأكفاء لها  
ولا ملام على مرتاد مصلحة  
فى النظم والشر من شعر ومن خطب  
باع اللجين بضعفيه من الذهب

فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشقى؟ يجوز كذلك. ولكنه جد يعيد.

ولم يبق لابن الرومى بعد موته ذلك الأخ الوحيد أحد يعول عليه من أهله أو من يحسبون فى حكم أهله، إلا أناس من موالىه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حيناً ويتناسونه أحياناً، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلى. أما ابن عمه الذى أشار إليه فى قوله:

لى ابن عم يجر رالشر مجتهد إلى قدمًا، ولا يصلى له نارًا  
يجنى، فأصلى يما يجنى، فيخذلنى وكلما كان زندًا كنت مسعارًا  
فلا ندرى أهو ابن عم لح أو ابن عم كلاله. ومبلغ ما بينهما من ثلة  
المودة ظاهر من البيتين.

### أولاده وزوجته

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء: هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه فى ديوانه، ماتوا جميعاً فى طفولتهم وراثهم بأبلغ وأفجع مارثى به والد أبناءه، وقد سبق الموت إلى أوسطهم - محمد - فنظم فى رثائه الدالية المشهورة التى يقول منها:

توخى حمام الموت أوسط صببى فله كيف اختار واسطة العقد  
على حين شمت الخير فى لمحاته وأنست من أفعاله أية الرشد  
ومنا فى وصف مرضه:

لقد قل بين المهدي والحد لثه فلم ينس عهد المهدي أو ضم الحد  
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد  
وظل على الأيدى تساقط نفسه ويذوى كما يذوى القضيب من الزند  
ويذكر فيها أخويه الآخرين.

محمد ماشئ توههم سلوة لقلبى، إلا زاد قلبى من الوجد

أرى أخويك بالباقين كليهما      يكونان للأحزان أورى من الزند  
إذا لعبا فى ملعب لك لذعاً      فؤادى بمثل النار عن غير ما عمد  
فما فيهما لى سلوة بل حزازة      يهجانها دونى وأشقى بها وحدى

فابنه محمد إذن قد مات منزقاً فى حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين  
الرابعة والخامسة، لأنه يقول فيه " لقد قل بين المهدي والحمد لبته " ويقول:  
" وظل على الأيدي تساقط نفسه " وإنما يحمل الطفل المريض على الأيدي فى  
مثل تلك السن، ولا يحتمل أن يكون أصغر من ذلك لأن أخاه الصغير كان  
فى سن اللعب، وهى لا تكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله فى رثائه:

يا حسرتا فارقتنى فننا      غمضا، ولم يثمر لى الفن  
والبيت من قطعة مريرة دفيئة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول  
فيها:

ابنى أنك والعزاء معاً      بالأمس لف عليكم كفن  
تالله لا تنفك لى شجنا      يمضى الزمان وأنت لى شجن  
ما أصبحت دنيأى لى وطنا      بل حيث دارك عندى الوطن

\*\*\*

أولادنا أنتم لنا فتن      وتفارقون فأنتم محسن  
وكأنها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت: فعاد  
يقول وهو موزع القلب بين الصبر والجزع:

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوى      على، ولؤم أن يساعدى الصبر  
فيا حزننى ألا سلو يطيعنى      ويا سواتى من سلونى، أنها غدر

وفى الديوان أبيات بائئة يرثى بها ابنا لم يذكر اسمه، وهى هذه  
الأبيات:

حماء الكرى هم سرى فتأوبا      فبات يراعى النجم حتى تصوبا  
أعيني جوداً لى فقد جدت للثرى      بأكثر مما تمنعان وأطيبا  
بنى الذى أهديته أمس للثرى      فظله ما أقوى قناني وأصليا  
فإن تمنعاني الدمع أرجع إلى آسى      إذا فترت عنه الدموع تلهباً

ويعبد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله، فهى على الأرجح رثاؤه  
لأصغر أبنائه الذى لم يذكر اسمه، ولا ندرى هل مات قبل أخيه أو بعده.  
ولكن يخيل إلينا بالمقابلة بين هذه المراثى أن الأبيات البائية كانت آخر ما رثى  
به ولدًا لأنها تنم عن فجیعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت  
عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلا الأسى المتلهب فى الضلوع وإلا العجب من  
أن يكون قد عاش وصلبت قنائه لكل هذه الفجائع. وقد كان رثاؤه لابنه  
الأوسط صرخة الضربة الأولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات، ثم  
حل الألم المرير محل الألم السوار فى مصيئته الثانية فوجم وسكن واستعبر،  
ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقده  
المصاب فى نفسه ولا يحسه فى عينيه

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت أبنائه (١)  
جميعاً فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء فهو يقول:

عيني سحا ولا تشحا      جل مصابى عن العزاء

ورثاها فى موضع آخر يقول فيه "

فاستغررا درة الشئون على      بدركما، بل على قضيبكما

(١) نكاد نجزم بهذا لأنه لم يشرفنى رثائه إياها إلى ولد تركته مع استقصائه كل معنى يقال فى  
موضوع، وذلك أحق شىء بأن يذكر فى رثاء زوجة.

ويلوح منه أنها ماتت وهى فتية توصف بما توصف به الفتيات ويغلب أنه هجر الزواج بعدها زمناً فلم يتزوج إلا فى أواخر عمره إذا صح ما استخلصناه من بعض آياته ونقول ما استخلصناه لأننا لا نعلم على خبر صريح فى أمر زواجه الآخر، ولكننا لا بد أن نقف فى هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم بن عبيد الله وهى:

وهب خادماً لم يوف نعماك شكرها      فبدل عرف عنده بنكير  
فما ذنب طفل كان تسبب كونه      رجاؤك، يا مرجو كل فقير  
أحسن ان جر العيال رجاؤكم      وخاب ندائكم، وهو خير خفير  
غياتكم يا آل وهب فإنى،      وإن لم أكن أعمى، أضر ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضاً وهى:

منعت الكفاف الذى لم تزل      تجود به كفك الموسعه  
فإن كنت مسلم ذى حرمة      لقول أعاديه. ما أضيعه!  
فعجله بالسيف كى يستر      يح، إن كنت من مثله فى سعه  
أسلمنا للردى ستنة      وقد كنت ترحمنا أربعه؟

لا بد أن نقف عند هذه الأبيات ولا بد أن نفهم منها أنه تزوج فى أواخر عمره ورزق ولداً فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة، ولا يمكن أن تكون الإشارة فى الأبيات الرائدة إلى كفه الأول وزوجته الأولى. لأن الأبيات قيلت للقاسم بن عبيد الله، والقاسم ولد حوالى سنة خمس وخمسين ومائتين، فلا يبلغ من السن المبلغ الذى يرجى فيه ويمدح إلا حوالى سنة خمس وسبعين، ولا يعقل أن ابن الرومى بقى عزباً إلى تلك السنة ثم تزوج زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة.

وكيفما كانت جلية القول فى هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عندها هجا عمراً حاجب القاسم، لأنه قال فيه:

أيركب عمرو حوله من يحفه ويعوزنى قوت أعول به عرسى؟

ولا يكون ذلك قبل ستة خمس وسبعين ونحوها. كذلك لا شك فى أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجاً لأنه يقول فى قصيدة نظمها فى نحو تلك السن.

ومبىتى بلا ضجيج لدى القمر وللوغد شادن مخضوب

ولم يذكر أحد من مؤرخيه - ولا الناجم الذى حضر وفاته - أنه ترك ولدًا بعده، فإذا صح ما استخلصناه من أمر زواجه الثانى فهناك فجيعة أخرى أصيب بها فى ولد جديد<sup>(١)</sup> قبل وفاته، فمات ولا زوج له ولا بنون

### تعليمه

ذلك كل ما استطعنا أن نجمله من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله. ولا محصل للبحث فى المصادر التى بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم وتلمذ لهم من العلماء الرواة. فإن هذه المصادر خلوا مما يفيد فى هذا المقام، إلا ما جاء عرضاً فى الجزء السادس من الأغانى حيث

(١) قضى ابن الرومى زمناً لا يتزوج حتى كان يسأل " . . . لم لا أتزوج " كما جاء فى أبيات له جيمية، ومن أقواله فى هذه المعنى

أنا غـيـران ولا زوجة لى  
ومنها

كيف ترضى الفقر عرساً لامرئ  
ومنها ما كتب بـاء صديق له يسمى إبراهيم

يا سـمى الخليل إياك أدعو  
أمه من إماء طولك أجمع  
دعوة يمت سميعاً مجيباً  
ما تزوجتها على غير تأميل  
ت على نقلها إلى قريياً  
وقليل النوال فى هذه الحـا  
ك فانتظر أجاتر أن أحيبا  
لة مما أراه شيئاً عجيباً

وقد يكون بعض هذا الزمن مضى قبل زواجه الأول، ولكننا رأينا كذلك أنه قضى زمناً فى أواخر عمره وهو أعزب.

يروى ابن الرومى عن "أبى العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك" وحيث يروى فى موضع آخر "عن قتيبة عن عمرو السكوتى بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك" فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ، لأن ثعلباً ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر بإحدى وعشرين سنة، أما قتيبة "والمفهوم أنه ابو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفى المحدث العالم المشهور" فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعملوه لأنه مات وابن الرومى يناهز العشرين.

وقد مر بنا أنه كان يختلف إلى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير، وسرى هنا أنه كان يرجع إليه فى بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها فى ديوانه معتمداً عليه: قال بعد هذا البيت:

وأصدق المدح مدح ذى حسد      ملآن من بغضه ومن شنف

"قال لى محمد بن حبيب: الشنف ما ظهر من البغضة فى العين"  
وأشار إليه بعد بيت آخر وهو

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم      فللدموع من العينين عينان

إذ فسر كلمة "عينان" فروى عن ابن حبيب أنه قال: "عان الماء يعين  
عيناً وعينانا إذا ساح".

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومى على هذا الاعتبار، ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناهم. وحسبنا مع هذا أن الرجل - كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه - قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره وساهم فى التقديم والحديث منها بقسط واف فى شعره، فلو لم يقل المعرى أنه كان يتعاطى الفلسفة والمسعودى أن الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتى فى كلامه. فهى هناك كثيرة متكررة لا يلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت فى أسلوبه وتفكيره،

وما كان متعلم الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها. فأنت لا تقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاماً كهذا الكلام:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها  
ولا فما يكيه منها وأنها  
أو: سأمده بعض الباخرين لعله  
أو: غاب تحت الحس حتى  
أو: إذا احتج محتج على النفس لم  
أو: يا باطلا أو همتيه مخايلة  
أو: رجوت صلاح القبل بالبعد فانبرى  
أو ما قاله في أصحاب الجدل:

لذوى الجدال إذا غدوا لجدالهم  
وهي كآنية الزجاج تصادمت  
فالقائل المقتول ثم لضعفه  
حجج تضل عن الهوى وتجور  
فهوت، وكل كاسر مكسور  
ولوهيه، والأسرار المأسور

أما ما قاله في هجاء صاعد وابنه أبي عيسى ومنه:

وثنى بابنه السفية المعنى  
والذى لم يصخ بأذنيه إلا  
عاقداً طرفه ببهرام أو كيو  
أو بشمس النهار والبدر والزهر  
واجتماعاتهن في كل قيد  
بأساطير رسططاليس  
نحو ذوثوريوس أو واليس<sup>(١)</sup>  
أن أو هرمس أو البرجيس  
رة عند التثليث والتسدس  
وافتراقاتهن عن كل قيس

(١) راجع اسمى ذوثوريوس واليس في أخبار الحكماء للقفطى

فهو فى الآيات الأخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين بأسمائهم المعروفة فى الكتب المنقولة، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية، ويذكرها فى غير هذه الآيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التى كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة إلى اليوم فى آداب الغربيين فيقول فى مدح إسماعيل بن بلبل وكان كاتبًا قائداً:

وافى عطارى والمريخ مولده فأعطيناه من الحظين ما اقترحا

لأن عطارى كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة:

ويقول فى مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب:

إذا صببت زهرته صبوة قال له هرسمه: هندسى

وإن عدا هرسمه عده قالت له زهرته: نفسى

والزهرة هى ربة الجمال واللهو، وهرمس هو اسم عطارى عند الفرس وهو رب الكتابة كما تقدم.

يعنى أن ممدوحه يميل مع اللهو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة، ويرهق نفسه بهذه فتدعونه الزهرة إلى التنفيس . .

وربما أعطاك شواهد مساهمته فى معازف زمانه كلها من أساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة فى بيت واحد، كقوله يداعب المرثدى حين أخلف وعده فى هدايا السمك:

الحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير أم حوت السماء أروم؟

فحوت الأرض هو الحوت الذى تزعم الأساطير أنه يحمل الثور الكبير الذى يحمل الأرض، وحوت يونس هو الحوت الذى ابتلع النبى يونس وجاء نبأه فى القرآن، وحوت السماء هو البرج المعروف باسم الحوت.

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب إذا لاحظنا قلة أخباره في كل شأن من شئونه علمنا أنهما يدلان على شيء كثير: أحدهما أتى به المعري في رسالة الغفران وفيه أنه "كان يتعاطى الفلسفة واستعار من أبي بكر السراج كتابًا فتقاضاه به، فقال ابن الرومي: لو كان المشتري حدثًا لكان عجولاً".

والخبر الثانى مأخوذ من ديوانه إذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتابًا استعاره منه فيقول له من قصيدة:

منحتك مصباحًا فأعشاك ضوءه      وقد كان ظنى أنه سيريكاً

وخبران من هذا النوع فى حياة قليلة الأبخار يشفان - مع شواهد شعره الكثيرة - عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم إلى ما بعد سن الكهولة، فإنه لا يقول "لو كان المشتري حدثًا لكان عجولاً" ألا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة.

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه فى هذا الباب للإبانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة لما نعرف من مجمل حاله. ففى بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المكاسب فى سبيل أدامانه كما جاء فى هذه الأبيات:

أن امرءاً رفض المكاسب واغتذى      يتعلم الآداب حتى أحكما  
فكسا وحلى كل أروع ما جد      من حر ما حاك القريض ونظما  
ثقة برعى الأكرمين حقوقه      لاحق ملتمس بالأى يحرما

وأظهر من ذلك قوله فى الهمزية الكبيرة للقاسم:

أن أكن غير محسن كل ما تطلد      ب أنى المحسن أجزاء  
فمتى ما أردت صاحب فحوص      كنت ممن يشارك الحكماء  
ومتى ما أردت قارض شعر      كنت ممن يساجل الشعراء

ومتى ما خطبت منى خطيباً      جل خطيبي، ففراق بي الخطباء  
ومتى حاول الرسائل رسلى      بلغتنى بلاغتى بالبلغاء  
وأظهر من هذا وذاك أبياته التى يمدح بها أبا سهل النوبختى ويذكره  
فيها مودة آل النبى واشتغالهما معاً بالتفكير فى إدحاض شبهات الفلاسفة  
والمتكلمين، ومنها:

ويدمج أسباب المودة بيننا      مودتنا الأبرار من آل هاشم  
وإخلاصنا التوحيد لله وحده      وتذيينا عن دينه فى المقاوم  
بمعرفة لا يقصر الشك بأبها      ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم  
وأعمالنا التفكير فى كل شبهة      بها حجة تعبى دهاة التراجم  
بيت كلانا فى رضى الله ما خصا      لحجته صدرًا كثير الهمام

وهذه الأبيات أحجى أن نعتمد عليها فى هذا الباب، مذ كانت تتعدى  
فخر الإنسان بنفسه إلى التذكير بوقائع معهودة ومدارس طويلة، جرت بينه  
وبين رجل من صفوة أهل العلم والدراية فى أيامه  
وقد وردت فى أبياته الهمزية السابقة إشارة إلى حذفه الكتابة ومشاركته  
فى البلاغة المنشورة تعززها إشارة مثلها فى هذا البيت:

ألم تجدونى آل وهب لمدحكم      بشعري ونثرى، أخطلا ثم جاحظا

فلا بد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية. إلا أن ما استجمعناه من  
منشوراته لا يعدو نبيذًا معدودة موجزة، منها رسالة إلى القاسم بن عبيد الله  
يقول فيها متنصلاً:

"ترفع عن ظلمى إن كنت بريئًا، وتفضل بالعفو أن كنت مسيئًا، فوالله  
إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس إلا قالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولا  
وأزداد تدللاً. وأنا أعيد حالى عندك بكرمك من واش يكيدها، وأحرسها

بوفائك من باغ يحاول إفسادها . وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك ، والسلام " .

ومنها رسالة كتبها يعود صديقاً : " أذن الله فى شفائك وتلقى داءك بديوانك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك " .

وكتب إلى صديق له قدم من سيراف فأهدى إلى جماعة من إخوانه ونسيه :

" أظال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلنى فداءك لولا أننى فى حيرة من أمرى وشغل من فكرى لما افترقنا ، وشوقى علم الله فغالب وظمأى فشديد . وإلى الله الرغبة فى أن يجعل اقدرة على اللقاء حسب المحبة ، إنه قادر جواد "

" ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يعثنا على تقاضى حقوقنا قبلك ، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على إمضاء العزم فى ذلك ، وما تطولت به من الإيناس يؤنسنا بك ويبسطنا إليك ، وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك . والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة " .

" وبلغنى أدام الله عزك أن سابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم أخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجى منها مع دخولى فى جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق إلى قلبى من ألم سوء الظن برأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبى من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقيق العتاب ، وفيما غابت كفاية عند من له أذنك الواعية وعينك الراعية " .

وقال فى تفضيل النرجس على الورد : " النرجس يشبه الأعين

والمضحك والورد يشبه الخدود، والأعين والمضحك أشرف من الخدود. وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى، والورد صفة لأنه لون والنجس يضارعه في هذا الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد أعنى أنه أبداً في الماء. والورد خجل والنرجس مبتسم، وانظر أدناهما شبيهاً بالعيون فهو أفضل".

هذه نماذج من منشوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا وخلق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد في بلغاء الكتاب وإن لم يعد في أبلغهم. على ان ابن الرومي لم يكن يحسب نفسه إلا مع الشعراء إذا اختلفت الطوائف. فإنه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبي الأصبع:

ونحن معاشر الشعراء ننمى إلى نسب من الكتاب دان  
وإن كانوا أحق بكل فضل وأبلغ باللسان والبنان  
أبونا عند نسبتنا أبوهم عطارد السماوى المكان  
ولا عجب فى هذا. فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة  
وعلم وأدب، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لا نفع لها أن لم يتتبعها المصعب إلى النهر الكبير. ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم. وقد رأيت قياسه المنطقى فى تفضيل النرجس على الورد، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان؟ أنه لقياس فنان نظر إلى الدنيا كأنها متحف للناظر مسرح للشعور، وقليل ما نظر إليها كأنها معمل للتحليل أو قبضة مبهمه للتأمل والتفكير..

\*\*\*

أما حظ من علوم العربية والدين فمن الفضول أن نتعرض لإحصاء الشواهد عليه فى كلامه، لأنه أبين من أن يحتاج إلى تبين. وندر فى قصائده المطولة أو الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها

فى اللغة وإحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع أمثالها وأسماء مشاهيرها وما يحصب ذلك من أحكام فى الدين ومقتبسات من أدب القرآن. فليس فى شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد فى كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين أحدهما صاحبنا والثانى المعرى: وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله بن عبد الله وعلى بن يحيى وإسماعيل ابن بلبل فيفسر غريب كلماته فى القراطس الذى يثبت فيه قصائده، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته، ثم يعود إلى الاعتذار من ذلك إذا أنس منهم الجفوة والتغير:

لم أفسر غريبها لك لكن لامرئ يجهل الغريب سواكا  
تغيرك لا لك التفسير، أنى يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلفون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه، وقصة "الجرامض" إحدى هذه المعابث التى تدل على غيرها من قبيلها. فقد سأله بعضهم فى مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجرامض؟ فارتجل فى مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجرامض. فارتجل مجيباً:

وسألت عن خبر الجر مض طالباً علم الجرامض  
وهو الخزاكل! وألغوا مض قد تفسر بالغوامض  
وهو السلجل شئت ذ لك، أم أبيت بفرض فارض.

وكلها كلمات من "مادة" الجرامض لا معنى لها ولا وجود ..

وإذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وفتية فضلا عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والأنساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة فى هذه المطالب. ولا سيما إذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ، فقد مر بك

أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة، فهب في الرواية بعض المبالغة التي تتعرض لها أمثال هذه الروايات فهو بعد سريع الحفظ وهذا مما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات.

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعرف لغة غيرها؟ أن جده كان رومياً ولكن كثيراً من الناس أجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لا يعرفون غير لغة الوطن الذي ولدوا فيه .

وأن أمه كانت تنتمي إلى فارس ولكننا لا نعلم أفارسية هي أم من أصل فارسي قد يرتفع إلى الأجداد، وفوق بين الحالتين كما لا يخفى . لأنها قد تجهل الفارسية وهي حفيذة فارسي أو يغلب أن تجهلها في هذه الحالة، وقد تتكلمها وهي بنت فارسي وفارسية فيلقنها ابنها وينشأ على التكلم بها من صباه

وفي أشعار ابن الرومي كلمات فارسية غير قليلة كالبنفسا " البنفسج " والدستبند " ضرب من الرقص " والبذِيخت " " سىء الطالع " والشير " الأسد " والبرشوجة " طائر " والدستنبوية " الشمامة " والكخذاة " القهرمانه " وأشباه هذه الألفاظ، ولكن العلم بالألفاظ كهذه وبأضعافها لا يكثر على ساكن بغداد في ذلك العصر الذي تقاربت فيه الأمتان الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس إلى كل فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضعية . فمن أبناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ويجريها في مخاطباته اليومية، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه . .

بل هناك ما يكاد يدنو بنا إلى الجزم بجهل ابن الرومي اللغة الفارسية وهو قوله في هجاء إسماعيل بن بلبل يتهمه في عربيته :

إسماعيل من رجل      تعرب بعد ما شاخا  
وأصبح من بني شيبا      ن ضخم الشأن بذخا  
وصار أبوه بسطاما      وكان أبوه قيباخا  
وصار يقول "قم عنا"      وكان يقول "قوهاخا"

فأول ما يتبادر إلى الذهن أن "قوهاخا" هذه ترجمة "قم عنا" باللغة الفارسية. ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره، وأكبر الظن عندنا أنها ليست إلا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومي على سبيل التهكم بالعجمة في تلك المخارج. وقد تكون تصحيفًا من "قوماخا" وهي قريبة من نطق الأعجمي لقم عنا. . . ولو كان حظه من العلم بالفارسية أكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أخرى به أن يظهر في هذا المقام

### مزاجه وأخلاقه

أى خبر من الأخبار التي تسربت إلينا عن حياة ابن الرومي لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه؟ بل أى خبر من هذه الأخبار لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفًا دقيقًا للملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله؟ فقد تعودته النفوس أن تشتاق إلى رؤية من تتحدث به وتسمع عنه. ولم تتعود ذلك عبثًا، ولكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية.

وليس من مجرد المصادفة - فيما نعتقد - أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية فى عصر واحد، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديمًا ببراعة الترجمة وكتابة السير أمما معروفة كذلك بتقيد الملامح

والسمات فى الصور والتماثل . فإن فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن .  
وكلتاهما لازمة لفهم السيرة وإتقان الدراسة النفسية .

ونحن نؤمن بالفراسة كل الإيمان ولا نشك إلا فى المترسرين أو فى  
بعض المترسرين . فالذى فاتنا من ترجمة ابن الرومى بفوات صورته قسم ليس  
بالقليل ، وتعويض هذا القسم بما بقى لنا من الوصف العرضى والأخبار  
المنزورة من أصعب الأمور .

فها نحن أولاء نكتب سيرة ابن الرومى ولا نعرف ما الفرق مثلاً بين  
سحته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم إن ابن الرومى كان كما نعلم  
سليل أبوه يونانية وأموية فارسية ، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان أقرب إلى  
ملامح الأموية منه إلى ملامح الأبوة؟ أو أقرب إلى ملامح الأبوة منه إلى  
ملامح الأمومة؟ أكان له وجه فارسى أو وجه يونانى أو وجه رجل فيه مسحة  
من سمات الشعبين أو لا مسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء؟ ما نظن ذلك مما  
يستغنى عنه فى ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائناً ما كان .

إذا كنا سنرجع إلى ذخيرتنا التى نعتمد عليها من شعر الشاعر وإلى  
القليل من أخباره التى تسربت إلينا فلا ندحه لنا فى هذا الصدد ولا حيلة ،  
وعزاؤنا بعض العزاء أننا قد نهتدى من شعره وأخباره إلى صورة له تعين على  
تخيله وتمثيله وإن لم تعن عن صورته الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل  
الغناء .



كان ابن الرومى صغير الرأس مستدير أعلاه ، أبيض الوجه يخالط لونه  
شحوب فى بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظرة بادياً عليه وجوم وحيرة ،  
وكان نحيلاً بين العصبية فى نحوه ، أقرب إلى الطول أو طويلاً غير مفرط ،  
كث اللحية أصلع بادر إليه الصلع والشيب فى شبابه ، وأدركته الشيخوخة

الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه، ولم يكن قط قوى البنية فى شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة فى الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام، فكان إذا مشى اختلج فى مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل، لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه. وكان على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسما لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة فى صفحة وجهه، أما فى الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره، ولحق به ما لا بد أن يحلق بمثله من تغيير السقام والهموم.

هذه خلاصة الصورة التى استخرجناها من شعر الشاعر وأخباره، وقد كان ينبغي أن نكتفى بها ونقف عندها لو كانت " الترجمة لذاتها " هى التعرض الوحيد من هذا الكتاب. ولكن " الترجمة " ليست هى كل ما نقصد إليه ولا أهم ما نقصد إليه، لأ، الطريق المؤدى إلى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقل عن بيان الترجمة لذاتها، ووسيلة الوصول إلى النتيجة مطلوبة كالوصول إلى هذه النتيجة، والصيد مقصود هنا كما نقصد المائدة والطعام الذى على المائدة. فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر ابن الرومى وحاجة الأخبار التى بين أيدينا إلى التكميل من كلامه فى وصف نفسه عامداً وغير عامد، وأن نبين كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية إلى الترجمة التاريخية، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط اسيعابه لنفسه فى شعره، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه.

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه فيؤخذ من رده على من عاب  
صغر رأسه:

إذ تنقصتني بصعلكة الرأس      س، سفاها واذمت غير ذميم  
ما تعديت أن وصف خشا      لو ذعيا كالحية المشهوم

\*\*\*

وقديماً ما جرب الناس قبلى      ثقل الهام فى الخفاف الحلوم  
واعتبر أن أفضل الطير فى الطير      ير، وفينا كروسات البوم  
فهو يقول لعائبه أن صغر الرأس لا يزرى به لأن الحية المشهور - وهى  
موصوفة بالحكمة واليقظة - صغيرة الرأس، والبومة كبيرته، وهى مضعوفة  
فاشلة بين الطير والناس.

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب فى رجل له جد من الفرس  
وجد من الروم، وقد قال هو يصف ديلاجة وجهه فى نضرة العمر:  
ياهل تعود سوائف الأزمان      أولاً؟ فمنصرف إلى السلوان  
كيما أروح وللشبية حبرة      أرنى العيون بفاحم فتان  
وبمشرق صافى الأديم كأنما      فيه ائتلاف من صفيح يمان  
والإشراق والصفاء والائتلاف أشبه بالبياض منها بأى لون من ألوان  
الوجوه.

وأما أنه كان " يخالط وجهه شحوب فى بعض الأحيان وتغير، وأنه كان  
ساهم النظرة بادياً عليه وجوم وحيرة ". فيفهم من قوله وقد لاحظت عليه  
بنت صغيرة لعبيد الله ابن عبد الله أنه كان كثير السكون والتفكير:

وشقيقة قالت أراه مفكراً      حتى أراه من السكينة نائماً  
فأجبتها أنى امرؤ هيامة      فى كل واد ما أفيق همامها  
أمسى وأصبح للشوار طالباً      بهواجسى، حول الأوابد حائماً

وهى ملاحظة صادقة بسيطة كأكثر ملاحظات الأطفال - ولا سيما  
البنات - على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيتفرسون فيهم ويطلقون النظر  
إليهم. ثم إن أناساً كانوا يعييون عليه انقباضه كما يؤخذ من قوله فى هجاء  
بعضهم: " يعيب انقباضى معجباً بانبساطه " وكما قال على بن إبراهيم كاتب

مسروق البلخي: "كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرًا يدل على تغير حال". ولو لم يكن هذا واضحًا في شعره وأخباره لتوسمناه من اعتلال صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه.

وأما نحوله "العصبى" المعروف فالدلائل عليه في شعره كثيرة منها قوله:

أنا من خف واستدق فما يث      قتل أرضًا ولا يسد فضاء  
.....

أنا ليث الليوث نفسًا وإن كن      ت بجسمى ضئيلة رقشاء  
ومنها:

يقول القائلون ضويت جدًا      ولم تنضحك أرحام النساء  
ومن انضاجها إياى أعرت      عظامى من لحومهم الوطاء  
إذا ما كنت ذا عود صليب      فيكفينى القليل من اللحاء  
ومنها:

وزارية على بأن رأتنى      من الهزلى حقيراً فى السمان  
وذلك فضلاً عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأو  
الخصاص على شأو البطان لأن العصب جعل فى الرجال قديماً و "كذا الجدل  
فى الحبال المتان"

وتعلم أنه كان أقرب إلى الطول أو طويلاً غير مفرط من شعره وحده لا  
من خبر روى عنه. فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكايه فى هجائهم،  
ومن قوله فى شيخوخته:

أقول وقد شابت شوانى وقوست      قناتى وأضحت كدنتى<sup>(١)</sup> تتخذ

(١) بنية الجسم من شحم ولحم.

ومنه :

وأرى قوامى لح فى تقويسه      ولقد يلج اللين فى تعطيفه

والقوام والقناة والتقويس بالطوال أشبه، ولا سيما حين يلج التقويس  
ولا يقف عند الانحناء اليسير. ويتوسم فيه الطول من أبيات كثيرة كهذا البيت

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت      ظلالى وأغصان الشيبية ميد

ومثله :

وظبية من ظباء كان مسكنها      فى ظل غصنى، إذا ظل الضحى التها

ومثله :

إذ للشيبية صبوة تصبو بها      وبشاشة نصبى بها وتروق

يهتز منك لاربيحات الصبا      غصن فيؤه الظباء وريق

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذى تتفيؤ الظباء إلا لقوام فيه

امتداد وطول

وقد طلب مرة ثوباً فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :

فأنجز الوعد بثوب له      من الجياد المرتضاة الحسان

وفى القوافى ثمن مـربح      فلا يقصر ذرعه عن ثمان

فإذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نزن ثمانى أذرع تطلب لرجل قصير

أو فوق القصير بقليل. إلا أنه لم يكن مفرد الطول لأنه كان يهجو من فى

طوله إفراط كما قال فى عمرو الحاجب :

فلقد منه طول نهر معوج      وللأنف منه نفخة البوق فى الكفر

ونحسب هذه الشواهد كلها كافية فى تخيل قوامه، وأنه لم يكن

بالطويل المفرط ولا بالقصير.

وكان ملتحيًا ولا شك في أوائل كهولته لأنه يقول:

رأيت جليس لا يزال يورعه بياض القذى في لحيتي فيميطة  
فكيف به عما قليل إذا رأى قذى الشيب قد عفى عليها سفيطة<sup>(١)</sup>

فهو قد التحى في سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه . إلا  
أنه اكن كثر اللحية قصير شعرها كما قال:

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها وأن غدوت امرءاً في لعيتي كثر  
وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لأنه نقص لا يد له في استدراكه،  
فكان يسخر من اللحي الطوال ويسميها أذناً ومخالى ومذبات ويشك في  
أدب كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلاً قاطعاً على نزارة أدبه حتى  
البحترى! لأن ..

البحترى ذنوب الوجه نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

ومغالطته في هذا بادية من دخيلة إحساسه بهيبة اللحية وأنها علامة  
التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة:

أرع فيها الموسيقى فإنك منها يشهد الله - في أئام كبير  
أيما كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيح الضمير  
هو أحسرى بأن يشك ويغرى بأنهام الحكيم في التقدير  
لحية أهملت فسألت وفاضت فإليها تشير كف المشير  
ما رأتها عين امرئ ما رآها قط إلا أهل بالتنكير  
روعة تستخفه لم يرعها من رأى وجه منكر ونكير  
فاتق الله ذا الجلال وغير منكرًا فيك ممكن التغيير  
أو فقصر منها نحسبك منها نصف شر علامة التذكير

(١) نثيره.

والرغبة فى غزارة اللحية معقولة من رجل أصلع كان يفرق من الصلع  
ويخفيه جهده، ويود أن يداويه بغزارة الشعر فى وجهه الذى لا يستطيع  
مداراته كما كان يدارى رأسه . .

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرته بما قال فيهما مضرب  
الأمثال بين الأدباء .

شاب رأسه فى غضارة الشباب فقال:

شاب رأسى ولا تمشيب وعجيب الزمان غير عجيب  
قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور فى القضيب الرطيب  
ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التى شاب فيها لأنها هى الحادية  
والعشرون من عمره كما عينها لنا تعييناً فى قوله:

فظلم الليالى أنهن أشبنتى لعشرين يحدوهن حول مجرم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة، فقال فيما دون الثلاثين:

وأنى تقرع رأسى المشيب ب ولم أقرع ثلاثين عاماً

وبلغ الأربعين فعد نفسه من الموتى إلا أحلاماً تذكره الحياة:

ميت إلا حشاشة وأدكار مثل أحلام حالم النوم

ومتى ما انقضت أجارى طرف مات إلا صيامه فى المصام

وقضيت الرضاه من درة الكرم لتجريم أربعين تمام

وهكذا فى الخمسين والخامسة والخمسين والستين، كأنه عابر طريق

يحصى ما عبر منها وما بقى له أن يعبر، وما وخط الشيب شعره حتى آلى له

من البداية "يميناً لأخفيناك جهدى" ووالى إخفاءه بقية عمره. وأخفى الصلع

حين أصابه فى شبابه كما أخفى المشيب، فكان لا يرى فى مكان إلا لابساً

عمامة، وعز عليه أن يمنى بهذا التشويه فى نظره وهو الذى أولع بكل تشويه

يتضحك به ويفتن في تمثيله ويغرق أصحابه في المزج والدعابة. فلزم العمامة لا يخلعها وأخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته، فكان أثقل شيء عليه أن يتعرض متعرض لهذا السر المصون!

يا أيها السائلى لا خيرى عنى: لم لا أراك متعجرا؟  
أستر شيئاً لو كان يمكنى تعريفه السائلين ما ستر  
ومن غير هجاء وقال فيه:

يعيرنى لبس العمامة سادراً ويزعم لبيسها لعيب مكرم  
وتلا ذلك ما لا بد منه فى هجاء صاحبنا من عوار الكلام ثم انكشف  
الأمر ولم تغن الحيلة فى لجاج الفضوليين والمتشوقين فعاد إلى العمامة يحيل  
عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلح ويقول أنه لم يكن أصلح قبل أن يلبسها  
وإنما كان يتقى البرد والحرر فدهاه طول التعمم فى لمته، فهو يلبسها الآن لستر  
هذا التشويه .. الحديث!

تعمت إحصائاً لرأسى برهة من القر يوماً والحرور إذا سفع  
فلما دهى طول التعمم لمتى وأودى بها بعد الأصالة والفرع  
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلح  
فيا لك من جان على جناية جملت إليه من جنائته الفرع

ولا يبعد أن يكون هذا صحيحاً بعض الصحة، وأن خوفه البرد والحر  
كان من أسباب ملازمته العمامة وإن لم يكن هو كل السبب، فقد كان يكابد  
فى الصيف نصيباً كما قال لبعض ممدوحيه "يا عليماً بما أكابد فيه" (١) . . .  
وكان مرهف الحس جداً فكان أهون مس يهيج أعصابه ويستنفر خلقه، بل

(١) قد مضى أكثر الشتاء وجاء الصيف يعدو فلا تزده النظاء.

يا عليماً بما أكابد فيه لا تعاونه، أن فيه اكتفاء

كانت الرائحة إذا قويت تؤذيه وتصدعه، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كما جاء في فصل التلطف من كتاب الصناعتين. ومن بلغ منه التفزز هذا المبلغ لم يبعد أن يلبس العمامة لاتقاء الحر والبرد، ولم يبعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر فطرة وأن يصيبه الشيب والصلع لأضعف سبب ..

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التي لا تدع شيئاً من تمثيل الشكل والحركة، فعلمنا منه أنه كان يختلج في مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالاً يديره

إن لى مشية أغرب بل فيها      أمّا أن أساقط ألا سقاطاً

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغريلة وتكثر فيمن بهم خلل في العصب أو العضل. وفي ديوانه أبيات يهجو بها أخوا نضر الجهد لأن نضراً أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له: أما انظر إلى مشيته مثل مشية المخثين؟

ونحسب أننا في غنى بعد هذا عن شواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب في شبابه ومشيبه، ولكننا لا نحب أن نحسد إذ أمكن أن نجزم، فالرجل يقول في صباه:

وإنى للقوى على المعالى      وما أنا بالقوى على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة، ففي ذاك يقول من قصيدته الدالية في صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان، وهي مما نظم حوالى الأربعين:

شغلت عنك بمواد أكابده      لا بالملاهي ولا ماء العناقيد  
ولو قعدت بلا عذر لمهد لى      جميل رأيك عذرى أى تمهيد  
قاسيت بعدك لا قاسيت مثلها      نهار شكوى يبارى ليل تسهيد

أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى      فما نهارى من ليلى بمحدود  
كأننى من كلا يومى وليته      فى سرمد من ظلام الليل ممدود  
إذا سمعت بذكر الشمس أسفنى      فصعدت زفرائى أى تصعيد  
وذلك إلى شكاية من المتطبيين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية  
مصابة وحظ من العافية قليل .

فلما أدركته الشيخوخة لا جر برحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت  
أعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج إلى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه .  
ودب كلال فى عظامى أدبنى      جنيب العصا، ناد أو أتأيد  
ويورك طرفى فالشخوص حياله      قرائن من أدنى مدى وهى فرد  
أو كما قال فى قصيدة أخرى:  
وأحدث نقصك القوى بين ناظرى      وسمعى وبين الشخص والصوت برزخا  
جماع ذلك قوله:

أنا ذاك الذى سقته يد السد      قم كؤوسًا من السقام رواء  
ورأيت الحمام فى الصور الشد      نع فكانت لولا القضاء قضاء  
وقد اختلفت أقوال ابن الرومى فى حظه من القسامة قبل أن تجوز عليه  
السن وتعصف السقام بما كان له من صباحه فى صخوة عمره . فهو إذا أراد أن  
يمزج أو يهون على نفسه فقد الشباب العزيز: قال:

من كان يبكى الشباب من جزع      فلست أبكى عليه من جزع  
فإن وجهى يقبح صورته      ما زال لى كالمشيب واللصع  
أو قال:

جزى الله عنى قبح وجهى سعادة      كما قد جزاه، والإله قدير

دعوت به قومًا فأرادوا إتاوة كأنى عليهم عند ذاك أمير

وهو إذا أراد ان يرثى الشباب وينفجع عليه قال :

وكنت جلاء للعيون من القذى فقد جعلت تقذى بشيبي وترمد

أو قال :

وما يرجى من البيض ابتسام أن أمسى لمفرقة ابتسام

كان محاسنى لم تضح يوماً وفى لحظاتها لها اقتسام

كأنى لم أر اللمحات نحوى وفى اللمحات لثم والتزام

والمرء يباليغ إذا أراد أن يتهكم أو يتفجع، ويبالغ إذا أراد التهوين

أو التهويل، فالصورة الأولى أدخل فى باب الصور الهزلية التى فيها مافى

جميع هذه الصور من التحريف والمسح والمبالغة، والصورة الثانية أدخل فى

باب الصور المحسنة التى يكثر فيها التنوق والإصلاح، ولكننا نرجح أنه كما

قلنا "على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسما لا يأخذ الناظر

بعيب بارز ولا صفة بارزة فى صفحة وجهه". لأنه كان يتناول بالسخر كل

عيب فى وجوه الذين هجأهم من خصومه ومازحهم من أصحابه، فلو كان

فيه مثل هذه العيوب البارزة التى لا تدارى ولا يغالط فيها لما تناولها ولا حول

الأنظار إلى مثلها فى وجهه، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو

والدعابة لتعرض له المهجؤون بمثل فعله عليهم شعراً كما رد عليهم حين

تعرضوا له فى العيوب الأخرى من مشية أو صلح أو هزل. فالأقرب إلى

الترجيح أنه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة، وأنه لم تكن ظاهر الحسن

ولا ظاهر التشويه. على أنه كأننا ما كان حظه من القسامة فى صباه قد فقد

ولا ريب ذلك الحظ الذى كان له حين شاح وجاوز الخامسة والخمسين، فإننا

لا نتخيل الجمال لشيخ نحيل معروق تقوس ظهره وشحب وجهه وانطقاً

وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضى

الذى تسبغه على رءوس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التى تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال.

\*\*\*

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومى كثيراً فى شبابه أو فى شيخوخته لو أنه اعتدل فى عيشه وقوى على ضبط نفسه، فإن ضعاف البنية قد يعمرن ويبلغون فوق الستين التى بلغها ابن الرومى وهم فى عيشة سوية وحالة من الصحة مرضية، وربما نيف الهزيل على الثمانين وهو مافى الجسد موقى من الأمراض التى لا يتقيها الأقوياء ولا يحجمون عن مواجهة أسبابها، ولكن ابن الرومى كان هزىلاً وكان مع هزاله قليل التصون والاحتراس، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله ولج به الحس المتوفز فتهافت على لذات الحياة وأطايها تهافت من لا يحب أن تفوته متعة أو تفلت منيديه نهزة، وكبر له الخيال لذات الحس ومباهجه فأكب على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لا تمنعه كظة ولا تقمع شهوته حمية. وراح منهوماً كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم اللهو والنعمة التهام من يخشى أن يذاد عنا ولما يستوف شبع شهوته منها. فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفاً فى درسه مسرفاً فى اشتهاؤه مسرفاً فى طعامه وشرابه، وروى له الشعر حتى فى أصناف الطعام والشراب بل روى له الشعر فى هذه الأغراض حيث لا يروى له شعر غيره. قال محمد بن يحيى الصولى فيما نقله المسعودى فى مروج الذهب:

"أكلنا يوماً بين يئدى المكتفى بعد هذا بمقدار شهر - أى بعد أكله روى فيها شعر لابن الرومى - فجاءت لوزينجة فقال: هل وصف ابن الرومى اللوزينج؟ فقلت نعم. فقال أنشدنيه، فأشدته:

لا يخطئنى منك لوزينج إذا بدا أعجب أو عجباً  
لم تغلق الشهوة أبوابها ألا أبت زلفاه أن يحجباً

لو شاء أن يذهب فى صحته      لشهل الطيب له مذهبا  
مستكف الحشو ولكنه      أرق جلدا من نسيم الصبا  
كأنا قدت جلايبه      من أعين القطن الذى طنبا<sup>(١)</sup>  
يخال من رقة خرشائه<sup>(٢)</sup>      شارك فى الأجنحة الجنديا

إلى آخر الأبيات . . فحفظها المكتفى فكان ينشدها

وأخبر نبطوية عن أحمد بن حمدون: "تذاكرنا يوماً بحضرة المكتفى فقال: أفيكم من يحفظ فى نبيذ الدوشاب شيئاً؟ فأشده قول ابن الرومى:

إذا أخذت حبه ودبسه      ثم أجدت ضربه ومرسه  
ثم أطلت فى الإناء حبسه      شربت منه البابلى نفسه

فقال المكتفى: قبحه الله ما أشرعه! لقد شوفنى فى هذا اليوم إلى شرب

الدوشاب

وإننا لنقرأ هذه الأبيات وأمثالها الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا أن الإسهاب فى وصف الطعام والشراب لم يكن فى ذلك العصر معيياً ولا مخلا بالمروءة، لأنه كان عصر الشهوات جميعها وأولها شهوة المأكلى والمشارب، بل كان عصرأ يصح أن يسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع فى الجدى واللهم وملتقى طلاب اللقاء فى مواعيد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر إلى مطعمه فى بيته وبراعة طهاته ونفقتة على أكله، فغضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه إلى البرصة لأنه رأى له طعاماً لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته، ونحن لا نتصفح أخبار المجالس فى ذلك العصر إلا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة فى إتقانها

(١) إذا انتفخت قطرة الماء كان لها قبة رقيقة هى المقصودة هنا.

(٢) الخرشاء قشرة البيض العليا.

والسخاء فى النفقة عليها. فرما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ومع كل منهم كعامه يتفكهون باستعراض ألوانه، والمقابلة بين صناعاته وطعومه، وكان من تمام ظرف الأديب والنديم أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل فى وصفه، فظهرت فى ذلك العصر كتب الأدباء فى فن الطهو ككتاب الطبخ لإبراهيم بن العباس الصولى وكتاب الطبخ وكتاب فضائل السكباغ لجحيظة البرمكى، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف! وكأنه فى ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى الملامة!

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الأبيات الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فنسأل أنفسنا: ما نصيب العصر فى تلك الأوصاف وما نصيب الرجل؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة من شبع وامتلاء؟ فمن شاء أن يحسب نهم ابن الرومى على النحو المتقدم باباً من الأدب لا باباً من الشره فله ذلك وحجته فى هذا الحسبان غير ضعيفة! ولكنه هو لا يدعنا نحار فى خليقة كهذه الخلائق التى تحكى عنه ويكون لها دخل فى حياته، فإذا تطرق الشك إلى جانب فلا بد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك إلى اليقين فيه، ومن شعره المحفوظ ما يروى لك كيف كان يعاب فى أكله وكيف كان رده على من يعيبونه، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفوة لا جريمة.

أن اصطبغت ولقمتى معضوضة<sup>(١)</sup> أنشأت تهجونى بذلك ظالماً؟

عيب لعمرك غير أن لم آته عمداً! فهبنى هافيا لا جارماً

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من أكله:

ذرىنى قسطنطين أكل شهوتى وتبشمنى، أنى بذلك راض

فأكثر ما القى من الزاد كظلة مدى يومها واليوم أسرع ماض

(١) اصطبغ ولقمته معضوضة أى وضع اللقمة فى الطعام وفى فمه لقلة يمضغها.

ثم لا ينسى أن يعرض كدأبه بغير ذلك، وأن يذكر الكظة التي لا تنصرف إلا بعد تسعة شهور!

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف التشويق إليه واللهفة عليه:

لهفى عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها الرجيم

بل هو لا يدعنا نحار حتى في "الأصناف" التي كان يحبها ويؤثرها على سواها. فقد علمنا مثلاً أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدة!

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء غذاء

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطيب

وعلمنا أنه كان يشتهي السمك ويمعن فيه:

فيا حبذا إمعاننا فيه ناضجاً كما جاء من تنوره الموقد

وعلمنا أن ابن أبي بشر المرثدى غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت

بالهدية منه بعد الهدية. فوقع المسكين في شباكه فما كانت تنقضى فترة إلا

على تذكير له ومناوشة، وجعل ابن الرومي هذا الوعد هجيراً ودعابته التي لا

يفرغ منها. وكما كان يفرغ من دعاية ولا غير دعاية وفيها بقية، فحيناً يقول أنه

قد تهود في انتظار السمك ويسأل ابن الرومي بشر:

ما لحيثاننا جفتنا وأنى أخلف الزائرون منتظرهم!

قد أرحنا اعتلالهم وجعلنا سبتهم جمعة، فما يشكيهم؟

جاء في السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليه ما يكفيهم

وجعلناه يوم عيد عظيم فكأننا اليهود أو نحكيهم

واحتملنا مقالة الناس فينا ولهم كل ما احتملنا فيهم

قد سبتنا، وإنما كان قوم يوم لا يسبتون ولا تأتيهم  
يشير إلى المائدة التي كانت تأتي بني إسرائيل يوم يسبتون . . . !  
وحينا يحمد الله الذي نجي السمك حين تعلقت به شهوة ابن الرومي  
ووعد المرثدي

الحمد لله الذي نجي السمك من الشصوص الجائلات والشبك  
علمه يونس من تسبيحه ما كان أدناه إلى تسريحه  
فهو من الصياد في أمان ما دعا أبغيه، وفي ضمان  
وحينا يسأل المرثدي مستعظماً لا بطائه:

الحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير، أم حوت السماء أروم؟  
وحيناً يسأل السمك:

أيا سمكاً بين السماكين عزة إلى كم يرانا الله عنك تصوم  
وحيناً يعلم المرثدي أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر في أخلاف  
ووعده:

أعلم وقيت الجهل أنك في قصر تليه مطارح السمك  
.....

وينات دجلة في فنائكم ماسورة في كل معترك  
.....

بيض كأمثال السبائك بل مشحونة بالشحم كالعلك  
تغنى عن الزيات قاليها وتبخر الشاوين بالودك  
.....

فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة، وكلاهما شهى

إليه!

وكان هذا ديدنه في كل أمر من أموره: إسراف واستقصاء لا يمسكهما ولا تعقدهما عزيمة، إسراف واستقصاء في النكتة وفي المعنى وفي الدرس وفي الطعام والشراب والشهوات، لا حد لهما إلا البشم والامتلاء واستنفاد ما بين يديه من مادة مادة في ساعتها حتى لا سؤر ولا صباية

إن يكن عندك لى نصح ح فما عندى انتصاح  
لا تلمنى فالهوى في ه جماع وطماح  
ما على المفتون فى ما غلب الصبر جناح  
كل شيء غلب الصبب ر إليه فمباح  
إنما الدنيا ملأه واغتباق واصطباح  
والمزاج الحسد أن فك رت والجسد المزاج

وتختلف نزعات هذا الإسراف وسببها كلها واحد: سببها كلها توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر عنها، ولو أن هذه الأشواق الجامحة شفعت بمسكة من العزم المتين لاعتدلت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة، ولكن أنى له العزيمة وهو أسير إحساس اللحظة التي هو فيها لا يترك له استغراقه فى مؤثراتها الحاضرة منفذاً إلى التفكير فى قابل أو غابر، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والحصافة

وصاحب هذا المزاج إذا خلا من الإحساس الثائر والرغبة الجامحة يثوب لا محالة إلى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على وجدانه. كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع إلى النشوة، فهو أبداً بين النقيضين من ثورة الإحساس وشدة الوجوم.

وليس التناقص بين ثورة الإحساس والوجوم في الحقيقة إلا ظاهراً لا يتعمق إلى البواطن الدخيلة، إذ أن فرط الإحساس كثيراً ما يؤدي بصاحبه إلى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التي تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلاده منحوله، أو مضياً مع عادة التفكير والخلو بالنفس التي ينميها التفات الإنسان إلى موارد الإحساسات المتوالية على وجدانه وحسه، وإذا لم يتوجه الإحساس إلى العمل والحركة فسيبيله التي لا محيد عنها أن يتوجه إلى التأمل ومناجاة السريرة، ونذر أن يوجد الخجل والاحتجاز إلا مع شدة الوعي والتنبه لكل حركة يتحركها الإنسان وكل كلمة ينسب بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه في نفوس غيره، فالسكون أدل على الحس المتوفر في بعض الأحيان من الحركة والاضطراب . .

ولعل الأصوب أن نقول أن ابن الرومي وقع من مزاجه وإسرافه في حلقة موبقة لا يدري أين طرفاها. فمزاجه أغراه بالإسراف والإسراف جنى على مزاجه، فإن هذا الإسراف الموكل بالاستقصاء في كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيف صوابه، بيد أنه لا يسرف هذا الإسراف إلا وفي جسمه سقم وفي أعصابه خلل وفي صوابه شطط لا يكبح جماحه، فالعلة هي سبب الإسراف والإسراف هو سبب العلة! وهو من هذه الحلقة الموبقة في بلاء واصب ومنحة لا قبل بها للضليع الركين فضلاً عن المهزول الضئيل، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار بدءاً وعوداً ثم عوداً وبدءاً علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير.

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومي وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره، فإن أيسر ما تقرأه له أو عنه يلقي في روعك الظنة القوية في سلامة أعصابه واعتدال صوابه، ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت في قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب إلى يقين لا تردد فيه. وكل ما نعلمه عن

نحافته وتفزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله فى الوجود واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقة وشهوانيته الظاهرة فى تشبيهه وهجائه، وإسرافه فى أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالعه فى ثنايا سطورهِ من البداوات والهواجس - قرائن لا تخطئ فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشدوذ الأطوار، بل لا تخطئ فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ.

ونقول "نوع الاختلال" لأن هذه الكلمة عنوان واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثل ما تشمله كلمة "الصحة" أو أكثر، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن ألبون بينهما جد بعيد، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلفاً ولكن الخلاف بينهما فى الأخلاق والمشارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بنى الإنسان. فتختل أعصاب المرء فإذا هو جسور عنيد معتسف للأخطار هجام على المصاعب لا يبالي العظام ولا يحذر العواقب، وتختل أعصاب المرء فإذا هو وديع مطيع حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ فى تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود فى غير وهمه. وبين الحاليتين - لا بل فى كل حالة من الحاليتين - نقائص وفروق لا تقع تحت حصر ولا تطرد على قياس.

ويديهى أن ابن الرومى لم يكن من الفريق الأول فى "نوع اختلاله" ولكنه كان من الفريق الثانى الذى يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام.

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان، فابن الرومى واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته فى صحته ومرضه وفى شبابه ومشيبه، ونحسب أن استقصاء للمعانى الشعرية والإلحاح فى تفريعها وتقليب جوانبها إن هو إلا علامة خفيفة من علامات

هذا الوسواس الذى لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه الثبوت والاستدراك، فيمنعن ثم يمعن حتى لا يجد سبيلا إلى الإمعان . .

ولكنه مع استعداده للهواجس فى شبابه ومشيبه قد تمدى به الوسواس فى أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعاً فليس له عنها محيص، فأفرط فى الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أذفع وعاه إلى ركوبه من يمنونه الأرفاد وحسن الضيافة، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لا يدل إلا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من محاز الشعر وتهويل الخيال، وهذا بعض ما قاله فى مخاوفة وأهوال ركوبه:

ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ولكن من هوله غير ثائب

أظل إذا هزته ريح ولألات له الشمس أمواجاً طوال الغوارب

كأنى أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوى بالسيوف القواضب

والماء الذى يصفه هنا هو ماء دجله لا ماء البحر ولا ماء المحيط! . .

هذه الوسواس هى التى عنها الذين قالوا - فى رواية المسعودى - " أنه كان الأغلب عليه من الأخلاط السوداء " والذين روى عنهم المعرى أنه " كان أديه أكثر من عقله " وهى التى وسمته فى نظر أبناء عصره بسمة الركافة والجنون . .

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر، أو عرفوا - على الأصح - بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التى تدرکها سرعتهم ولا تدرکها عقول السواد فى بطئها وأخذها بالسير المألوف . .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل إلى الجنون الذى يقول عنه ألقائلون أنه يخلط بين الشرق والغرب ويقحم الأحاديث فى غير مواضعها ومناسباتها

لسرعة وثبه من كلام إلى كلام ومن معرض إلى معرض، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون إليه.

ولكنها إذا هي لم تبلغ إلى حدها الأقصى المشاهد في أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال المستسرة، إذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون به مقتضباً أو مشوهاً على غير استواء. فإنهم في هذه الخصلة كالآلة التي تنطلق بالصور المتحركة فتعرض لك في لحظة ما يعرض في برهة، والمناظر بعد واحدة والنسبة بينها كلها على استواء واحد. أو هم كالمجهر المكبر الذي يرى الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهي بعد صحيحة الأبعاد مستقيمة الأوضاع، والعلم يحتاج إلى التكبير في درس الأشياء ويحتاج إلى مثل هذا التكبير في درس النفوس فليس كل ما دق الشعور به عن الناس عامة باطلاً معيياً، ولا كل ما خفى على العين حقيقاً بالتجاهل والإخفاء.

إنما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج في الغالب من ناحية واحدة هي ناحية ضبط الإحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر وإحساساتها التي تناسبها.

فقد زعموا في الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا إذا فكروا في جنى يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار إشارة.

فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقة لا أسطورة، وأن السحرة الأقدمين موجودون في كل زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج.

يخطر لهم أن صديقاً مات فما هو إلا أن يومض في ذهنهم هذا الخاطر حتى يثب معه الحزن الذي يحزنه الصديق على صديقه، أو بعبارة أخرى يثب معه الجنى الملازم لخطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار إشارة.

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هي إلا أن تتارعى فى خياله حتى يقترن  
بها الإحساس الذى يناسبها من خوف أو غضب أو فرح أو اغتباط، ثم لا  
يستطيع أن يضبط حركة إحساسه ولا أن يصرف عنه الخالجة النفسية التى  
أيقظتها فيه هذه الفكرة، فكل شر مظنون فهو عنده كالنشر المحقق على حد  
قول شاعرنا:

وإذا ما ظننت شيئاً فحفه رب شر يقينه مذنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسبح له خاطر السقوط منه فسرعان  
ما يهب فى نفسه شعور الوجع والاضطراب كأنه قد سقط فعلا، يم لا  
يستطيع دفع شعوره ولا يهدئ من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض تاج  
من خطر الوقوع الموهوم! وربما سنب له شبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سمها  
الناقع ولو لم يكن فى موضع نظرقه كاف لتحريك الإحساس وجيشانه وتمثله  
لخياله فى مثل ملح البصر، ثم لا توجد عنده القدرة على رد إحساسه إلى  
نصابه والهيمنة على حركات نفسه. فهو كأولئك السحرة فى قوة الاستدعاء  
لولا أنه ينسى الإشارة التى يصرف بها الشياطين فتلتوى عليه وترديه!

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج

ولكنك ترى أنه ليس خطأ فى الخاطر ولا فى الإحساس الذى يلازمه،  
فالخاطر صحيح والإحساس كذلك صحيح وإنما الخطأ أن الإحساس يجيء  
قبل الأوان أو فى غير الأوان. وقد يعد ذلك عيباً فى العلم أو فى تدبير  
المعاش، أما فى الفن فلا عيب فيه. لأن الفنان أحوج ما يكون إلى استحضار  
الشعور فى غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعتة حاجة عارضة إلى تمثيلها.  
فهذه الخصلة قد تؤذيه فى معاشه وقد تؤلمه وتشقيه، ولكنها لا تستلزم الخلل  
فى تفكيره وعاطفته إلا من حيث التكبير والتجسيم، وقد يكون التكبير  
والتجسيم ألزم لإظهار الخفى وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء، ولا  
سيما فى الفنون.

ومع كل هذا يجب أن نذكر أن أمن شيء في الحكم على هذه الأمزجة وأشباهاها هو ألا تركز كل الركون إلى قاعدة مقررة في تقدير أعمالها وأحوالها، وألا تزال مترقباً منها للمفاجآت والغرائب في كل لحظة. فقد يجتمع العنف العصبى والوداعة العصبية في إهاب واحد. وقد يعنف اللطيف ويلطف حسبما يطرأ عليهما من الطوارئ، وهذا الذى تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه فى بعض حالاته خابى الذهن كليل الفهم لا يعى عنك ما تقول، وهذا الذى يقيم القيامة للصفائر التوافة قد تراه وقتاً ما وهو مستخف بالعظام لا يبالي ما كان منها أو ما يكون . . وأنت تسأل: أفى تركيبهم تناقض؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا. لأن التناقض موجود فى ظواهر الأفعال غير موجود فى بواطن المزاج، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده إذا هى لمستة وبلغت منه حرى ألا يبالي الحوادث الجسام إذا هى لم تلمسه ولم تبلغ منه، فالمعول فى ثورته وسكيتته على ما يباشر حسه ويلامس أعصابه. لا صغير إلا وهو خطير مثير إذا أزعجه وملاً إحساسه، ولا خطر إلا وهو هين طفيف إذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته، فهى الدهر بين تبرم وفرع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من قوادح الخطوب.

ويحتاج الأديب أحياناً إلى هذا التناقض كما يحتاج إلى استحضار الإحساس فى غير أوانه، أو يحقق لنا أن نقول أن شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاء وحدة فى ملكة السخر التى اشتهر بها وبلغ فيها أوجه، فإن النقائص والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة. وما هنا معدن النقائص والمفارقات التى يعانىها السأخر فى نفسه وقد يستغنى بها عن مراقبة غيره . .

كان ابن الرومى سأخراً ولا جرم. كان شاعر النقائص فى عصر النقائص، وكان شاعر الفطنة الوحية فى عصر الرياء الشائح بين ما هو كائن وبين ما يدعى ويستوجب. فلا جرم يسأخر وعناصر السأخر فى نفسه وفى

زمنه! وقدرة السخر فى قلبه وفى عقله!. ولا جرم يسخر وهو مهياً للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزع أهوائه وعصبياته. فإن صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو فى الجدل والمرارة، ولكن صاحب العصبية الكثيرة لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يسعه إلا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظاهر التى يضعها غيره من الناس موضع الجدل والقداسة.

وها هنا شاعر ينتمى أبوه إلى الروم وتنتمى أمه إلى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب فى ولائه إلى أبناء النبی العربى ويتقاسم ولائه عدوان لدودان من العباسيين والطلبين. فأين تكون العصبية وأين تكون العصبية وأين يكون المطاعن والمثالب؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى. لن يسعه هو إذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطلبين والعباسيين واختصمت بينهم العصبية والمنافسات إلا أن يبسم فى كل صوب بسمة العطف والدعابة، وأن يصبح على غير قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والكفاهة: كالذى يختصم إليه بنوه ويدعى كلهم ما يدعى من فضله وعيوب إخوته، وكل ما فيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه ..

فقد اجتمع لابن الرومى إذن من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد فى عصره: اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه، وسعة النظر إلى الفوارق وسماحة العطف التى تقابل مرارة العصبية. فهو ساخر لا يبارى فى سخره، وعابث مطبوع على العبث بكل شىء حتى صحبه ونفسه. يستخدم السخر فى الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة، ويعرض لك فى متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التى لا مثل لها فى شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله، ثم لا يأنف أن يريك بينهما صورة له بل صوراً شتى لا يعوزها حظ من العناية وأمانة الصناعة.

فهذا الوجه الذى فصل للصلاة والتعبد فى الفلاة وجه من هو؟ إنه وجه  
ابن الرومى فيما صوره لنا حيث يقول:

شغفت بالخرد الحسان وما يصد      لـح وجـهـى إلا الذى ورع  
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشد      هد فيها مشاهد الجمع!

ومن هذا الغائص الذى تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح، أو هذا الخائف  
المراقب الذى يمر بالماء فى الكوز مر المجانب؟ إنه هو ابن الرومى أيضاً حيث  
يقول عن نفسه:

وكيف؟ ولو ألقيت فيه وصخرة      لوفـايت منه القعر أول راسب  
ولم أتعلم ق من ذى سباحة      سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب  
فأيسر إشفافى من الماء أنن      أمر به فى الكوز مر المجانب  
وأخشى الردى منه على كل شارب      فكيف بأمنيه على نفس راكب؟

وابن الرومى أيضاً هو ذلك المنهوم الذى يشره إلى الطعام حتى فى  
الأحلام، ويأسف على أن يذاد عنه ولو فى المنام:

ولقد منعت من المرافق كلها      حتى منعت مرافق الأحلام  
من ذاك أنى ما أرانى طاعماً      فى النوم أو متعرضاً لطعام  
ألا رأيت من الشقاء كأننى      أثنى وأكبح دونه بلجام!

وابن الرومى كذلك هو الشيخ الفانى الذى لا ينسبه هم الشيخوخة أن  
يتهكم بنفسه ويحمد الله على زيغان بصره، لأنه بركة تجعل الشخص  
شخصين فى نظره

وبورك طرفى فالشخوص حiale      قرائن من أدنى مدى وهى فرد

هذا مثاله من سخره بنفسه. أما سخره بغيره فله فى أفانينه الكثيرة  
ومعانيه الغريبة ما يقوم بديوان كامل، وبراعته فيه طبقة لا تعلوها طبقة فى

نوعها ويندر أن يدانيها فحول الساخرين في المشرق والمغرب، فله في أحداً  
كان يضايقه ويترصده أمام داره ليتطير منه:

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفها  
وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها، فتجمعا

وهي براعة لا نظير لها في وصف الشكل والحركة ولا في تضمينها  
هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركب ل يتم فيها نصيب العين  
والضحك والخيال. فصورة الرجل وهو يتهاى لأن يصفع ثم تيجمع ليتقى  
الصفعة الثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها لا يعوزها الإتيان الحسى ولا  
الحركة المهينة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة  
بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق.

وله في معلم صبيان مغن:

أبو سليمان لا ترضى طريقته لأنى غناؤ ولا تعليم صبيان  
له إذا جاوب الطنبور محتفلا ضرب بمصر وصوت فى خراسان  
هواء كلب على أوتار مندفة فى قبح فرد وفى استكبار هامان  
ونحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التسغيم فكى بغل طحان

وله فى جحظه وكان مغنياً جاحظ العينين:

تخاله أبداً من قبح منظره مجاذباً وتر<sup>(١)</sup> أو بالعاً حجراً  
كأنه ضفدع فى لجة هرم إذا شدا نغمًا أو كرد النظرا  
وله فيه:

نبئت جحظة يستعير جحوظه من فيل شطرنج، ومن سرطان  
وارحمتا لمنادميه تحملوا ألم العيون للذة الأذان

(١) وتر القوس لا وتر العود.

وله فى مغن:

تلك اللواتى ليس يعدوها  
موسوسًا يخنق معتوها<sup>(١)</sup>

أنك لو تسمع ألعانه  
لخلت من داخل حلقومه

وله فى مغنية:

غصة فى حلقها معترضة  
كل عرق مثل بيت الأرضة

تضغط الصوت الذى تشدو به  
فإذا غنت بدا فى "جيدها"

وله فى مغنية أخرى:

بل له بالقلوب عنف وبطش  
خلت فى حلقها شعيرًا يجش

صوتها بالقلوب غير رفيق  
فإذا رققته بالجهد منها

وله فى صاحب لحية:

صاد بها حيتانه أجمعا  
لم ينبعث فى خطوه إصبعا

لو غاص فى الماء بها غوصة  
أو قابل الريح بها مرة

وله فى أبى حفص:

كلاهما أصبح لى ناصبا  
وحدى وكان الأكثر الغالبا  
فليعتزل لحيته جانبا!؟

إن أبا حفص وعثونه  
قد أغربا بى يهجوانى معًا  
إن كان كفؤًا لى فى زعمه

وله فى رجل له منظر ولا أدب عنده:

فليس يحسن إلا وهو مصلوب

طول وعرض بلا عقل ولا أدب

وله فى أكل مضاعة:

(١) البيتان غير موجودين فى الديوان المخطوط.

بعض أضراسه يكادم بعضا  
لا دؤب إلا دؤب رحاها  
لا تعطل رحاك يا ابن سليما  
قسماً لو وقفها للمساكي  
ما ظننت الأنساب يجتر حتى  
وله في قصير أعور أصلع:

أقصر وعور  
شواهد مقبولة  
تنبئنا عن رجل  
أقامه القفد فاض  
وله في قصير:

على أنه جعد البنان دحيدح  
وله فيمن هجاه:  
رقادك لا تهسر لي الليل ضلة  
أبي وأبوك الشيخ آدم تلتقى  
فلا تهجنى حبسى من الدم أننى  
وله في بخيل:

يقتر عيسى على نفسه  
فلو يستطيع لتقتيره  
وله في أصلع:

فهى مسنونة بغير سنون  
أو دؤب الرحى التى للمنون  
ن فليس الشواب فيها بدون  
ن لما مسهم غلاء الطحين  
كنت ذاك الإنسان عين اليقين

وصلع فى واحسد  
ناهيك من شواهد  
مستعمل المقافد  
حتى قائماً كقاعد

إذا ما مشى مستعجلاً قليل: يدحرج  
ولا تتجشم فى حوك القصائد  
مناسبنا فى منسب منه واحد  
وإياك ضممتنا ولادة والد

وليس بيباق ولا خالدا  
تنفس من منخر واحد

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليلة

وله من أمثال ذلك ما يطول بنا إحصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الإسهاب

فى تكرار شواهدة

وأبرع ما يكون سخره كما ترى إذا هو شبه لك صورة محسوسة أو خلق لك من خياله صورة معنوية، فإنه يحكم التشبيه ويحكم خلق الصورة فيضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ويضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد إلى خلق الشكول المعنوية، كصورة الأحدب مثلاً أو كصورة الرجل "المستعمل المقافد" . . الذى يضرب فى كل مكان صالح منه للضرب، فيصلع لفقده فى موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه، وحركة الأبيات نفسها حين تتلى على عجل كحركة الصفحات ما تنى نازلة صاعدة كما أنبأ عنها فى تلك الأبيات

أو كصورة الرجل الذى لا نفع له إلا أن يصلب لأنه بذلك يظهر أحسن ما فيه وهو عرضه وطوله، أو كصورة المعنى الذى تتراءى عيناه الجاحظتان كعيني الضفدع "الهرم" فى لجة يكرر النظر ويغنى وفمه فى الماء!

وكان فضلاً عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة فى اللفظ ولا فى المعنى ولا فى التصوير: ألق بالك مثلاً إلى كلمة "جيدها" فى هذا البيت:

فإذا غنت بدا فى جيدها كل عرق مثل بيت الأرضة

فلو أن ساخرًا غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة غير "جيدها" للمبالغة فى التسييح والتشويه، ولكنك تنظر فترى أصلح الكلمات فى هذا الموضع هى الكلمة التى توهمك الحسن وتحمض لك المناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهورة، فيستوفى طرفًا النكتة ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبين الأرضة، كما نضحك من الفرق الذى يبدو لنا إذا وقف القمر إلى جانب العملاق . .

وتأمل كلمة "طحان" في هذا البيت:

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا      عند التنغم فكي بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي التي تمت بها أحسن تمام. لأن السخر لن يستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء الممتع بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان، ولو كان بغلا من البغال الفارحة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه. وقس على ذلك "الشيخ" آدم، أو قس عليه سائر الأبيات والصور.

وسياتى تفصيل الكلام على ملكة التصوير في شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة.

\*\*\*

وليس يكفي أن نقول أن ابن الرومي كان ساخرًا بارع التصوير لنعلم كل شيء نحب أن نعلمه عن سخره. فإن السخر يتنوع حتى لا يتفق في الباعث الذى يوحيه ولا فى العبارة التى تؤديه. وأدباء "النفسيين" كل يقسمونه إلى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة، ويجعلون كل قسم منها جميعًا نوعًا من "الضحك" قائمًا بمفرده مستقلا بصبغته وغرضه. والأقرب إلى فهم الموضوع عندنا أن نوحّد الضحك ونجعل الاختلاف فى الخلائق والحالات النفسية. فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللئيمة، وبين الضحك فى حالة الرضى والعطف والضحك فى حالة الغضب والجفاء، ثم نفرق بين العبث فى الحالين المختلفين من النفس الواحدة: فبعث النبيل الأريحي غير عبث الوضع الخبيث، وتهكم الصارم الأبي غير تهكم الرخو الدليل. وفى الدنيا من التهكم بمقدار ما فيها من المتكلمين، نعى بذلك أن التهكم ليس "نوعًا" واحدًا من الضحك ولا شكلا واحداً من الملكات، ولكنه أنواع

تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب. فخير لنا أن نرجع إلى اختلاف هذه الحالات من أن نجمع التهكم كله في باب واحد وصبغة واحدة، وهو ليس كذلك.

وما من ضاحك إلا وهو قابل لجميع هذه الحالات في مختلف الأطوار، فهو متهكم حيناً وعابث حيناً ومازج بين هذين الشعورين في بعض الأحيان، كما يتفق كثيراً أن يمزج الشعوران المتغايران.

فإذا قلنا أن ابن الرومي ساخر فقد نفى أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التي توحيه، فإن المرء - كما تقدم - يكون ساخراً وهو طيب سليم الطية وساخراً وهو خبيث مظلم السريرة. فمن أى فئات الساخرين كان ابن الرومي وأى خليقة من الخلائق كانت تهيمن على سخره؟ أنسكله فى الطيبين أو فى الخبيثاء وفى الخلائق الشفافة القويمة أو فى الخلائق الكدرية العوجاء؟ إننا نسأل هذا السؤال ونبتسم.

نبتسم كما قد نرى الطفل اللعوب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفرج ثم يسألنا السائل فى جد ورزانة: ما هى العداوة التى يكنها ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم ويلهو بمعايهم...! فأى عداوة وأى صداقة؟ وأى خباثة وأى طيبة؟ هنا مضحكة وكفى...! ولن يفهم الطفل فى منطقة إلا أنه يستطيع هنا أن يضحك، فلم لا يضحك؟ أى نعم لم لا والضحك لذيذ والإغراء به حاضر؟!!

فابن الرومي هو ذلك الطفل فى سخره وضحكه وتهكمه وهجائه، لسنا نفهمه حق فهمه إلا إذا تمثلناه أبداً فى جلد الإحساس واخضراراه على هيئة الطفولة النامية التى لا تجف ولا تشيخ زان جفت المفاصل وشاخت الأوصال، وستمر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تدرك ولا تفسر إلا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته. فسل ما

شئت عنه ولكن سؤالك عن الطفولة النامية بمزيتها ونقصها وطبيعتها وخبثها ورضائها وغضبها، صدره ولكن لا تنس أن الأدب السيء خلة غير خلة الطبيعة السيئة، وأن ليس الكظم والسكوت علامة على الكرم والصفح الجميل في كل حال.

وأجهل الناس بالطبائع الإنسانية من يصف امرأة كابن الرومي بالحسد والضغنة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويعجب لحظوة الجهلاء بالخير دونه، إذ ليس الحسد أن يألم الإنسان لأنه محروم مزود عن النعم التي يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها، ولا أن يرى - مصيباً أو مخطئاً في رأيه - أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم أنداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب والمآثر، كلا، ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود في ردى الصفات، وإنما الحسد المذموم هو خلق كرهه يبتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره وإن كانت عنده ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الأفراح والآلام.

فالحسد نضوب في العاطفة وابن الرومي أبعد إنسان من نضوب العاطفة، وتحجر في الشعور وليس للتحجر في خلائق ابن الرومي وأمثاله مكان، والحاسد لا يجعل الخير مقروناً بالفضل والنعمة مرهونة بالمناقب، ولا يطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون بهما في الدنيا بغير حق ولا معرفة، إذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذي إنما يريد الخير لأنه يريد وكفى! ثم لا يكلف عقله أن يدلى له بحجة في طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التي لا تسأله سبباً والأثانية الصماء التي لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر، ويسوءه أن ينعم الناس لأنه يرى النعمة وبقاً عليه ويرى أن كل ما سر غيره مسلوب منه، وليكن ذلك السرور علماً وهو لا ينافس العلماء أو صلاحاً وهو لا يشبه بأهل الصلاح أو شرفاً وهو لا يصلح إلى الشرف، فحسبه أنه سرور في عرف أحد من الناس وحظ ينعم به غيره ويتملاه ليكون

ذلك السرور ثأراً عنده ويكون تنغيص المسرور به من همه وإربه . وهذا هو  
الحسد الذى ليس فى طبيعة ابن الرومى ذرة منه، بل ليس ما عنده إلا نقيضه  
وضده . .

فقد كانت ألد متعة التى وصفها تلك المتع التى غنمها مع صحبه وسعد  
بها كما سعد غيره، وربما كان لا يلح ذلك الإلحاح فى طلب السمك الذى  
يحبه إلا ليسرع به إلى صديق يدعوه إليه ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ وبالشيبوط والفسرخ  
وبالبكر التى لم تشق بالنار ولا الطبخ  
وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولم لم تكن بينه  
وبين المحروم صداقة ولا علاقة . فكان يرثى للحمال المكدود إذا بصر به  
فيصف خاله وصف مشفق عليه يألم لجميع أله .

رأيت حمالا مبين العمى يعثر فى الأكم وفى الوهد  
محتملا ثقلا على رأسه نضعف عنه قوة الجلد  
بين جمالات وأشباهها من بشر ناموا عن المجد  
وكلهم يصدمه عامداً أو ثائه اللب بلا عمد  
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبء  
وما اشتهى ذاك ولكنه فر من اللؤم إلى الجهد  
فر إلى الحمل على ضعفه من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الإشفاق عليه  
والعجب من صبره إلا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم، وبرح  
العناء على التكسب بمدح البخلاء، ويريح نفسه عما يعاينه الشاعر ويفتقر إليه

من استجداء النوال وذل السؤال، وهى صلة لا تتحرك بها العاطفة إلا فى نفس مجبولة على العطف والتأسى بأحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع .

" وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه فى الاستخفاف به " فقال ابن الرومى يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصدقه :

أحب ان تشتمنى	بوزن ما تشتمه
أو توقع الإكرام لى	وللذى أكرمه
فإن ما تفعله	بحضرتى يحشمه
وإنى يظلمنى	كل امرئ يظلمه

ولو رجل غير ابن الرومى فى موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة سوء لسره أن يخص بالجفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك الرجل الجليل بموافقه على مزاحه واستخفافه . لكنه كان فى الواقع كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق، بل كان الصديق مقدماً عنده على الحبيب .

عرج على ذكر الصد	يق وعد عن ذكر الحبيب
كم مكثر لى مخبث	ومقل قسول لى مطيب

لأن العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحيى نفسه ويخلقه خلقاً جديداً كما قال :

خليل أظل إذا زارنى	كأنى أنشأ خلقاً جديداً
أرانى وإن كثرت المؤنس	ون ما غاب عنى وحيداً فريداً

فما كان الرجل خاسداً ولا شبيهاً بالحاسد، وما كان إلا إنساناً كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره، بل ما كان إلا ذلك الطفل الكبير

الذى كأنه فى حده طعمه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغر فاه إلى قطعة الحلوى فى يد غيره فبلغ ريقه وصاح فى براءة وصراحة لا تعرفهما طبائع الحاسدين:

لا تلومن حاسداً. ألم النفس من البخس يا أخى شديدا!

وما حيلة المسكين فى شهوة قلبه وفى قلة حيلته وحوله؟ وكيف الصلدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا بغافل عن لذتها؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم نصيبه من النعمة؟ لا! بل إن فتنته لأشد وأضرى وأنه بالغبن لأحسن وأدرى:

يا ليت أهل العقل إذ حرموا عصموا من الشهوات والفتن  
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرشى من الأحن  
وهم أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن

فمبلغ القول فى حسده أنه كان شديد الرغبة فى متع الحياة قليل الحيلة فى احتجانها، فإذا سميت هذا حسداً فقل إن ابن الرومى حاسد وقل أن الطفل الذى يتطلع إلى الحلوى فى يد رفيقه الصغير حاسد. وأضف إلى الحسد بهذه التسمية معنى جديداً لم يكن من معانى هذا الخلق البغيض الذميم.

\*\*\*

ويقال فى حقه ما يقال فى حسده. فقد كان ساخطاً ولم يكن حاقدًا، وألبون بعيد بين السخط والحقد. وإن التبتت أعراض هذين الخلقين على طلاب الظواهر.

فهما خلقان متباينان وقد يكومنان فى بعض الأحيان متناقضين، فيسخط الإنسان بل يدوم سخطه وليس فى قلبه من الحقد أثر، وقد تكون كثرة سخطه

لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسه، أى لقلّة حقه وقلة إصراره على البغض القديم.

والحقد توأم الحسد فى خلة الأثرة الحيوانية والأناثية الصماء، فهذه الخلة يستكبر الحاقدا الإساءة الصغيرة إلى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره، والسبب فى الخالتين واحد. وهو أنه لغلوه فى حب نفسه واستغراقه فى الأثرة الحيوانية لا يريد أن يساء هو ولا أن يسر غيره، وليس يعنيه أن يساء بالحق أو بغير الحق وأن يكون عادياً فى هذه الإساءة أو معدواً عليه. فإن ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس فى الإساءة إليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا إليه بالعدوان عليه أو بصدده هو عن العدوان، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه أن يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من محققهم ولإنقاذ حياتهم!! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره العدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة إلا أن يكره ما يسوءه كأننا ما كان وبالغاً ما بلغ فيه العذر والاضطرار، وهذا غير الشعور الذى يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فسيوءه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض، فإن من النبيل أن يغضب المرء للعدوان وقع به أو وقع بغيره فإن لم يرتفع بغض العدوان إلى مقام النبيل فهو لا يهبط بصاحبه إلى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم.

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومى حين توالى عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره، فكل سبب كان يثيره فهو سبب "أخضر" لا مشابهة فيه لأسباب الحقد التى يطول ثاؤها بالضمير حتى تفسد وتتعفن أو تيبس وتتحجر.

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومى يطاقه بضرب من الإحساس غير ذلك الذى نسميه "بالأخضرار" لجدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة

زواله، وأنى لمثل هذه الطبيعة إصرار الحقد وتدبيره وثباته على ما فيه بين  
تقلب الحوادث وتجدد المسرات والمصائب؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من  
الشعور هو ذلك الشعور الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فإذا كانت  
الأسباب ما تزال مؤلمة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون  
حيثئذ أنه الحقد وأنه الضغينة وأنه خلق ذميم وطبيعة رديئة، لأن الحقد هو  
الاسم الذى يطلقه العامة على الاستياء إذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى  
وجوده، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأناية وقلة الإحساس بمعنى العدل أن  
يسيئوا إلى السمضعف المخذول ولا يتوقعوا منه الألم والاستياء . . ولم لا؟  
ألا يسرهم أن يعبثوا به ويتماجنوا عليه؟ فما باله إذن لا يسر بما به يسرون ولا  
يضحك هو كما هم يضحكون؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور هو ذلك الذى  
تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فإذا غابت الأسباب وفترت المؤثرات نسى  
شعوره فى لمحة عين وانقلب إلى نقيضه، وفى قصته مع الأخفش عبرة لمن  
شاء أن يعرف ما وراء سخطة من الطيب والغفران والمودة، فقد صمد  
الأخفش ما صمد من الزمن يعبث به ويثقل عليه فى العبث حتى منعه أن  
يبرح بيته ويتصرف لمعاشه، فعاتبه ابن الرومى فلم يرعو وأنذره فلم يحفل  
وقال له يتوعده:

لا يأمّن السفّيه بادرّتى      فإننى عارض لمن عرضا  
عندى له السوط أن تلوم فى الس      سير وعندى اللجام أن ركضا

وما توعده إلا بعد لجاح ومحال وصلح واعتذار، فلما لم ينفعه ذلك  
هجاه وأقذع فى هجائه كعادة أهل الزمان فى كل هجاء، فعاد الأخفش إليه  
يسترضيه ويستعطفه فرضى وعطف، وأسرع فنسى ثقيله ونسى الهجاء وأقبل  
يقرظه ويطريه ويبالغ فى تقريظه وإطرائه غير تارك لنفسه بقية لوتر قديم ولا  
لوتر مستأنف:

ذكر الأخفش القديم فقلنا  
 وإذا ما حكمت والروم أهلى  
 أنا بين الخصوم فيه غريب  
 ومتى قلت باطلا لم ألقب  
 بدأ النحو ناشئاً فغدها  
 .....  
 إن للأخفش الحديث لفضلا  
 فى كلام معرب كنت عدلا  
 لا أوى الزور للمحابة أهلا  
 فيلسوفاً ولم أسوم هرقل  
 أحدث الأخفشين فاقاد رسلا  
 .....

يا ظمء إلى الصواب ردوده  
 هو بحر من البحور فرأت  
 وأظنب فى ذلك حتى دعاه مقومه وخدينه:

قل له يا مقومى وسميى  
 قد أردت الإطناب فيك فقالت  
 ورأيت اليسير يكفى من الح  
 إلا أن الأخفش لم يصف هذا الصفاء ولم يكن إلا عابثاً فى صلحه كما  
 كان عابثاً فى خصامه، فعاد إلى شنشنته معه وعاد ابن الرومى إلى سلاحه  
 الذى نبذه حتى حسب صاحبه أنه حطمه، فقال يذكره:

حذار عرامى أو نظار فإئما  
 ولا تحسبن الصلح أنصل ألتى  
 ولكننى مستجمع الحلم مغبر  
 فإن هاجت الهيجاء أو عودها  
 يظلكم قطع من الزجر مرسل  
 ولا أننى فى هدنة السلم أغفل  
 أفوق نبلى تارة وأنصل  
 على بدئها لم يلق منى أعزل

وليس يغر الحاقده هذا الغرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون حقه  
 ويحذرون منه تصميم نيته.

واقلب ابن عمار على ابن الرومي وابن الرومي كما عرفت من مأخبره هو الذي أعانه بما في وسعه وقربه من الرؤساء أصحابه وجعل له سبباً إلى رزقه، فجزاه انقلاباً بانقلاب ومسبة بمسبة، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تحيل جهده على عطفه واستلال حقه وحسده فلم يفلح، وكتب إليه يستعيده إلى سالف مودته:

أيتها الحاسدي على صحبتي العسدي	رى وذمى الزمان والإخوانا
حسداً هاجه على ثلب شعري	ولقائي معبساً غضابا
وانتقاصي مع العدو وقد كا	ن يرى لى نقائصي رجحانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه	أيها الظالمى إخوانى عيانا
أعلى أننى ظمئت وأشحى	كل من كان صادياً ريانا
أم على أننى أمشى حسيرا	وأرى الناس كلهم ركبانا
أم على أننى ثكلت شقيقتى	وعسدت الثراء والأطانا
عد كريماً إلى كريم كما كد	ت وإلا لقيت منى هوانا
لا عقاباً بما تقول ولكن	بجفاء أردفتته هجرانا
وتيقن أنى مقيم على العهد	مد حياتى، وخذ بذاك ضمانا
لا أعهد الذنوب منك ذنوباً	بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجد ذلك فى استعطاف ابن عمار ولم يثنه عن عداوته وثلبه . . ثم تقرأ فى ديوان ابن الرومي فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أو ستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار رهذا لتيسير منفعة كان يرجوها لديه .

ونظن أننا فى غنية عن سرد القصص والأمثلة على عطف ابن الرومي وغرارته وطيب قلبه، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته، وآية ذلك بينه فى شعره كله وفى تفجعه على

أحبابه وشدة فقدته لأهله، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها، وهو القائل وقد صدق:

وإني لبر بالأقارب واصل على حسد في بعضهم وعلى بغض

ولقد آن أن نبذ تلك الطريقة العتيقة التي كان بعض الأقدمين يعتمدونها في نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منهما، فإنهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون المخابر، وكانوا ينظرون إلى السمات البادية ولا يظنون إلى ما وراءها من بواعثها . . . فللغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما إذن خلق واحد! ومتى كان الشاعر كثير الظم والآنحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف إلى سمات وجهه، فلا جدال إذن في حقه ولا شك في قبح سريرته وجنونه إلى الشر دون الخير والعداوة دون المودة . . . فإذا اتفق مع هذا أنه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء . ألا تراه ناقماً مغتماً؟ ثم ألا تراه هاجياً لا يكف عن الظم والشتيمة؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارع الناس بدفين بغضه؟ فماذا بقى بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان؟!!

لا يا قضاة! بقى من أسباب الحكم كل شيء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتد عليه! بقى البحث في أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه، فإن هذه هي العناصر التي تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه . فغذا نحن عرفناها فذاك، أما إذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف إلا ألوان الطلاء .

علام تدل النعمة؟

ثم علام يدل الاعتراف؟

إن الإنسان لينقم وهو من أشرف الناس في نقمته، وأنه ليرضى وهو من أحبب الناس في رضاه، وأن اعتراف المعترف لأحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق، وهي رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود .

ويلوح لنا أن نقاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون "المتهم" ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه . . فغاية الفرق بينهم أن نقاداً لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق إليهم هل هو مضروب أو غير مضروب؟ ونخالهم يغبطون بأن يساق إليهم مضروباً معترفاً ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب!

وشهادة الإنسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاهما لا قيمة لها ما لم يكن لها مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومي قد شهد على نفسه بالحق فقال وهو يتحدث بأخلاقه:

شكرى عتيد وكذاك حقدى      للخير والشر مكان عندى  
وقال:

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى      وبعض السجايا يتسبن إلى بعض  
فحيث ترى حقدًا على ذى إساءة      فثم ترى شكرًا على حسن القرض  
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع      من البذر فيها فهى ناهيك من أرض  
ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها      يا العيب أن تدان دينًا فلا تقضى

فهذا اعتراف صحيح يتلطف عليه القضاة: قضاة المحكمة العتيقة، ولكنه بعد ليس بالمهم فى البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سرًا هو الأهم فى هذا الصدد وهو الحقيق بأن يدار البحث إليه .

فبحث أن نعلم أولاً لماذا شهد ابن الرومي على نفسه بالحق هذه الشهادة، فإن الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعاً على الحقود. وصراحة ابن الرومي هنا تلفت النظر إلى أمر شاذ فى هذا "الاعتراف" وتدعونا إلى السؤال عن سره، وسره ليس ببعيد . .

فالرجل كان يدعى الحقد ليخيف الذين يستوطنون جانبه ويستسهلون إرضاءه بعد إغضابه، فما كان يذكر الحقد إلا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفى أو ظاهر، ويخير الناس بين شكره وحقده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده. فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التي يتحلها بعض الحيوان للإخافة والتهويل حين لا يكون مخيفاً ولا هائلاً في الحقيقة . . وهو محتاج إلى دعواه حاجة الحيوان إلى سحنته البغيضة في متراك الحياة.

وسبب آخر لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ويحب أن يمتحن قوته فى المنطق والفلسفة بقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجيه ومن تنازع الأقوال فيه، وتلك سنة كانت معروفة فى ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان. فمدح ابن الرومى الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح، وهو القائل فى ذم الحقد والرد على مادحيه:

ما مادح الحقد محتالاً له شبها	لقد سلكت إليها مسلماً وعثا
لن يقلب العيب زيناً من يزينه	حتى يرد كبيراً عاسياً حجثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً	فلن ترى سبباً منهن منتكثا
يا دافن الحقد فى ضعفى جوانحه	ساء الدفين الذى أمست له جدثا
الحقد داء دوى لا دواء له	يرى الصدور إذا ما جمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبه	فإنما يبرىء المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت	ولا تكن لصغير الأمر مكثرتا
والعفو أقرب للتقوى وأن جرم	من مجرم جرح الألباب أوفرتا <sup>(١)</sup>
يكفيك فى العفو أن الله قرظه	وحيا إلى خير من صلى ومن بعثا

(١) فرث شق، وفرث الرجل ضرب كبده وهو حى.

تلقى أخاك حقوداً صدره شرثاً<sup>(١)</sup>  
وأن تصادف منه جانباً دمثاً  
بسيء الفعال، جدا كان أو عبثاً  
يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثاً  
يحفظ ما طاب ما ماء وما خبثاً

للحقد لم تقصد بزند وار  
والحق محتج، وأنت تمارى  
واخترت من خليكك غير خيار  
آلاءهم بالأرض والعمار  
أو سيء - كرما وعتق نجار  
يا سابق التقرير بالإقرار  
لا يدفع المعروف بالإنكار  
مما يلظ عليه بالأستار  
من عدها فى الفخر يوم فخار  
تهوى بنا أبداً لشر قرار  
من جنة الفردوس أفضل دار  
من تلکم الجنات والأنهار  
حرمت أبانا قرب أكرم جار

شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن  
نعم وسرك أن ينسى الذنوب معا  
أنى إذا خلط الأقوام صالحهم  
جعلت قلبى كطرق السبك من حسد  
ولست أجعله كالحوض أمزجه  
وهو القائل فى هذا المعنى:

يا ضارب المثل المزخرف مطرباً  
أصبحت خصم الحق تهدم ما بنى  
أطربت غنك لا سمينك ضلة  
شبهت نفسك والأولى يولونها  
ورأيت حفظك ما أتوا من صالح  
وزعمت فيك طبيعة أرضية  
ولقد صدقت وما كذبت فإنه  
لكن هاتيك الطبيعة فى الفتى  
ولصمته عن ذكرها أولى به  
فينا وفيك طبيعة أرضية  
هبطت بآدم قبلنا ويزوجه  
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها  
بئست لعمر الله تلك طبيعة

(١) الشرث من السيوف والأسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه .



نعم! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم:

لا تخلط الحب بالتقوى فتعطفنا على المقاسى عذاب الهجر والبين  
ولم نبع قط دنيانا بأخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

أيسكر بعد إقبال المشيب وأدبار الشباب؟

نعم ..

فاعذر شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الأطول

أو

فالآن حين أجد الشيب يطلبني أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد إقبال المشيب وأدبار الشباب؟ قد يكون ذلك

خييراً ..

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً ولا ترينك السن والله والنهى  
على الشيب والإسلام واللوم مقدما

أيشح ويحرص على ماله؟

نعم .. فإنه

إذا لم يكن عندي سوى ما يكفني فشحى عليه مثل شحى على عرض

لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذييل مصون العرض فى طلب القرض

أيجود ويسرف؟

نعم .. و:

لا تحملن هموم أيام على يوم لعلك أن تقصر عن غده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود:

قنى يا إلهى شح نفسى فإننى أرى الجود لى حظًا وشيمتى البخل  
وربما تعاورته الحالتان فى لحظة واحدة، فتراه حائر النفس ين الحرص  
والتوكل لا يطمئن إلى هذا حتى يثوب إلى ذاك:

وقضاء الإله أحوط لنا س من الأمهات والآباء  
غير أن اليقين أضحى مريضًا مرضًا باطنًا شديد الخفاء  
ما وجدت امرءاً يرى يو قن إلا وفيه شوب امتراء  
لو يصح اليقين ما رغب الرا غب إلا إلى ملك السماء  
وعسير يلوع هاتيك جدا تلك عليا مراتب الأنبياء  
أو قد يدركه الحذر أو الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر  
إحجامه كأنه مطالب بهذا الإعلان:

لا أقذع السلطان فى أيامه خوقًا لسطوته ومر عقابه  
وإذا الزمان أصابه بصروفه حاذرت رجعتة ووشك مثابه  
وأعد لومًا أن أهم بعضه إذ قلت الأيام من أنيابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية. فأما إذا ثارت بلابله  
واضطرمت لواعجه وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهم أهجم هاجم على  
سلطان حديد ناب أو مفلوله؟ وهو الجسور فى هجائه على ما يخافه الجسور  
مغلولة؟ وهو الجسور فى هجائه على ما يخافه الجسور الذى لا يخاف.

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من إحساسه، و "النوبة الطارئة" هى  
المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة، وما كان ف  
ينفسه من سر مغلق إلا وجدته هو معنى منهومًا بالغوص عليه والكشف عنه  
لقارئى شعره!

عاش ابن الرومي حياته كلها في بغداد، لا يفارقها قليلاً حتى يعود سريعاً وقد نازعه إليها شوق وغلبه نحوها حنين، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع: فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه. . . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأيئتها ألوف الألوف، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة في كل فرع من فروع العلم والأدب، وإلى جانب ذلك بيوت في كل منزله ومرتاد على النهر أو في الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يغنى فيها القيان ويرقص الجوارى ويغشاها العيلة والسواد، ويسكت عنها الخلفاء حيناً فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها إلى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لا تغيب عن الطلاب والرواد، ومن وراء ذلك أحياء منبوذة يكمن فيها اللصوص والمغتالون يتألمون على نقب الدور وحمل العزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الإثم والجريمة في عواصم هذا الزمان، فإذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقه واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف إلى السرور والرغد في كل جهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب في عواصم الدنيا التي تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك.

وهذه العواصم كافة لا تطيب فيها إقامة إلا بمال، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج إلى المال من ساكن العواصم الحديثة، لأنها كانت عرضة للغلاء في القرن الثالث لاضطرابات الأمور في الجهات التي كانت تديرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين. فإذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومي في بعض شكاياته:

أحسن ما كان الدقيق موقعا      من رجل أفلس حتى أدفعا

وأصبح القوم البطان جوعاً وخشى الجائع إلا يشبعها  
وهي إذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض  
اليسار كما قال بعض الشعراء:

سقى الله بغداد من جنة غدت للورى نزهة الأنفس  
على أنها منية الموسر ين ولكنها حسرة المغلس  
وابن الرومى لم يكن طالب معيشة وحسب، بل كان طالب معيشة  
ومتعة ومسرة، وكان منهوماً فى مطالبه كلها قليل الصبر على غواية المناعم  
واللذات أنى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة:

فبادر الدهر بالمناعم واللذات واحذر من وشك مرتحل  
فإن تعذرن أن يجئتك بالقوة فاحتل لطائف الحيل  
وكان كثير الألفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعهن ولا يسمع فيهن لوم  
لائم:

ولاح فى القيان فقلت مهلاً وهل من حربة أو من سنان  
رميت بنبل أوتار القيان وكلمنا فى القلوب بلا سنان  
شبهات الرماح قنا متون كعين أو كشعر أو بنان؟

وربما كان الشعر من حيلة التى يحتال بها على رد القيان وحضور  
مجالسهن فينبئ عليهن حيناً ويهجوهم أحياناً وينال بذلك ما يناله غيره  
بالدنائير والدراهم، بيد أنها حيلة تغنيه فى هذا الغرض قليلاً ولا تغنيه كثيراً،  
ثم هى لا تغنيه عن المال كلما احتاج إليه فى سائر وجوه عيشه ولهوه.

فصاحبنا فى مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد فطر،  
فهل كان ميسور الحالة مكفى المؤونة؟ وهل كان الشعر كفيلاً له بما لا يغنيه فى

ضروراته ونوافله؟ أو هو كان فقيراً محروماً لا يصيب من فرض العيش إلا ما  
يغبه على موائد الأمراء أو يحتال له "لطائف الحيل" حيثما أسعفت وأفادت،  
وقلما تسعف وتفيد؟

أن قصائد ابن الرومي في جملتها لا تدع إلا أثراً واحداً في ذهن القارئ  
من هذه الوجهة، وهو أنه كان في ضنك وفاته كثير الحرمان كثير الشكاية.  
ولكنها لا تخلو هنا وهناك في أبيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر،  
وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذي يروونه  
عليه.

أحرمنى لأنى مستقل وإنى لست كالرزحى والسغاب  
فما تحمى ذوات الدر درا إذا صادفن ملآن الوطاب

\*\*\*

ومن أبياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثرء  
وتحف موروثه منها قدح زعم أنه كان للرشيد وقال فى وصفه وقد أهدها إلى  
على بن يحيى المنجم:

وبديع من البدائع يسبى كل عـقل ويطـبى كل طرف  
وفى الحسن والملاحـة حتى ما يوفيه واصف حق وصف  
قدح كان للرشيد اصطفاه خلف من ذكوره غير خلف  
كفم الحب فى الحلاوة بل أحلى، وإن كان لا يناغى بحرف  
صيف من جوهر مصفى طباعا لا علاجاً بكيمياء مصف  
تنفذ العين فيه حتى تراها أخطأته من رقة المستشف  
كهواء بلا هباء، مشوب بضياء. أرفق بذاك واصف  
وسط القدير لم يكبر لجرع متوال، ولم يصغر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه ميسر المعيشة ولو بعض التيسير، وأنه كان فى وقت من أوقاته "مستقلا" ليس "كالرذى السخاب" غير أننا لا نعلم بخبر تلك الضيعة إلا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناه ولا تغل عليه:

أعانى ضيعة ما زلت منها بحمد الله قدما فى عناه

وأنها كانت تصاب بالجراد فىأتى على زرعها فى بعض السنين:

لى زرع أتى عليه الجراد عادنى مد رزئته العواد  
كنت أرجو حصاده فأتاه قبل أن يبلغ الحصاد الحصاد

وأنه كان يستغفى من دفع خراجها ويكتب إلى وهب ابن سليمان يشكو إليه ضيقه خراجها ويكتب إلى وهب ابن سليمان يشكو إليه ضيقه وسلب الخطوب ما فى يديه:

هب لراجيك ما عليه فإن اسـمك وهب ووسمك الوهاب  
أنت بحر ومن له تجتبي الأمـوال بحر لجانبه عباب  
فارغباعن مداد شعبى فليست فيه إلا صبابة، بل سراب  
وارثيا لامرئ ألح عليه للزمان الصئول ظفر وناب  
سلبته الخطوب ما فى يديه وله من تجمل أثواب  
.....

غير أن ليس فى خراجى وحدى ما بأعلاقه يسوغ الشراب  
لك فى مكثرى الرعية دونى حلب كيف شئت بل أحلاب

كذلك لا نعلم "بثرائه" إلا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و:

حدوث حوادث منها حريق تحيف ما جمعت من الشراء

وأنه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين:

أمن بعد منزلة المطعمين أعدم منزلة الطاعم

وكذاك لا نعلم بخبر درايه إلا لنعلم أنهما غصبتا منه كما زعم أو  
خرجتا من يده بحق أو بغير حق على أية حال، فلما كان في نحو الثلاثين  
جار على دار له تاجر يعرف بابن أبي كامل - في رواية زهر الآداب -  
فاغتصب بعض جدرها وأجبره على بيعها وفتح ابن الرومي إلى سليمان بن  
عبد الله بن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك "الوطن" :

ولى وطن آليت ألا أبيععه      وإلا أرى غيرى له الدهر مالكا  
عهدت به شرخ الشباب ونعمة      كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكها  
وحسب أوطان الرجال إليهم      مآرب قضأها الشباب هنالكا  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم      عهدود الصبا فيها فحنوا لذلكا  
فقد ألفتة النفس حتى كأنه      لها جسد أن بأن غودر هالكا

وقد ضامنى فيه لثيم وعزنى      وها أنا منه معصم بحبالكا  
وأحدث أحداثا أضرت بمتلى      يريغ إلى ييعيه منى المسالكا  
وراغمنى فيما أتى من ظلامتى      وقل لى أجهد فى جهد احتيالكا  
فما هو إلا نظمك الشعر سادرا      وا الشعر إلا ضلة من ضلالكها  
مقالة وغد مثله قال مثلها      وما زال قوالا خلاف مقالكا  
صدوقا عن الخيرات لا يرام العلا      ولا يحتذى فى صالح بمثالكا  
من القوم لا يرعون حقا لشاعر      ولا تفتدى أفعالهم بفالكا  
يصيرنى سؤال الملوك ولم يكن      بعار على الأحرار مثل سؤالكا  
مدلا بمال لم يصبه لحلة      وحق جلال الله ثم جلالكا

وحسبى عن أتم الألية زاجر      بما امتلأت عيني به من جمالكا  
وأنى وأن أضحى مدلا بماله      لأمل أن ألقى مدلا بمالكا  
فإن أخطأتني من يمينك نعمة      فلا تخطئه نقمة من شمالكا  
فلم يصغ إليه سليمان بن عبد الله .

وهذه هي قضية الدار الأولى التي غصبت وسليمان وال على بغداد وابن الرومى يومئذ في نحو الثلاثين . وهي قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين . تقرأ الأبيات حتى تنتهي منها ، فلا يسعك إلا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومى وعسره التفاتا إلى هذا الاستقصاء الدقيق في سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التي نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغى عليه في زعمه ، فما من كلمة قيلت في تلك المشاجرة أو تقال في أمثالها إلى اليوم إلا جاء بها ابن الرومى وأبرأ بها ذمته كما يبرىء الذمة حالف اليمى الغموس : يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغى ويزيد وينذر خصمه الويل والشبور وعظائم الأمور ، فيهزأ التاجر المعتر بثروته الساخر بكل شىء غير ذبه وفضته ويقول له : وماذا عساك أن تفعل ؟ قصاراك أن تنظم قصيدة ! . فاذهب وانظم ما بدالك ودع الشعر ينفعل ! فما هو إلا ضلة من ضلالك وبلاء لك يضر بك ولا يجدى عليك ، فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستحف التاجر بفخره ويقول له : وما أنت من ذاك كله . . ما أنت إلا متسول مسترقد تمد يديك إلى مال غيرك !! فيرتد عليه الشاعر مزرياً بما لم يجمع إلا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو ويستعدى ويرجو ويستجدى ، وهكذا تدور الملاحاة والمنازرة في القصيدة وتسجل القضية كلها في الشعر على نمط لا يخرم حرفاً ، ولا يزيد فيها ولا ينقص . . كان الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها !! ومن الطبيعي أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعي أن يثبت الشاعر

جميع ما حدث فى قصيدة . إذ لا فرق بين أقدر الشعراء وأضعفهم إلا أن  
أقدر الشعراء يجيء فى شعره " بالطبعى " البسيط وأضعفهم يهمل " الطبيعى "  
البسيط وينقص منه أو يزيد عليه .

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية ، فقد  
نازعتها فيها امرأة ونزعتها منه عنوة فكتب إلى الوزير عبيد الله بن سليمان  
يعرض عليه القضية ويتستغيث :

تهضمنى أنثى وتغصب جهرة عقارى، وفى هتاتيك أعجب معجب  
لقد أذكرتنى لامرئ القيس قوله " فإنك لم يغلبك مثل مغلب "  
وكانت آخر قصيدة قالها - كما فى الديوان - لامية يقول فيها :

أقول إذا نصبتنى كف جارية الله أكبر من ود ومن هبل (١)  
إن الغوانى بما أملن من أمل فما يبالين ما لاقين من أجل  
متى غلبن رجال الجد فى زمن كما غلبن رجال اللهو والغزل  
وإن أعجب شىء أنت مبصره فى كل ما حملته الأرض من ثقل  
كف خضيب من الحناء غاصبه كفا خضيباً من الإيطال والعصل  
يا حسرتالى! ويا لهفا! ويا عجبا إن هذه الحال لم تنكر ولم تزل  
فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى عسودى ظمىء بلا رى ولا بلل  
يريد دولة بنى وهب أنصاره وممدوحيه .

ومن الواضح أن هذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمن قليل ، لأنه  
يطلب رجوعها فى أواخر شعره ويقول أنه لم يكن يومئذ " من رجال اللهو  
والغزل " . وقد يحتمل أن هذا الشعر كله قيل فى دار واحدة لا فى دارين وأنه  
تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث ورام أن يضطره إلى

(١) وبان من أرباب العرب فى الجاهلية .

بيعها فلم يبيعها وظل مالكاً لها حتى ضاعت منه فى أخريات عمره، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لأن زهر الآداب صريح فى أن التاجر "أجبره" على بيع داره ولأن ابن الرومى لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنى الدار لو كانت هى الدار الأولى التى ملكها وعاش فيها من صباه إلى هرمه.

وتم قصة أخرى "لدار" كان ابن الرومى يسكنها ويخاطب فى شأنها والى الشرطة أحمد بن محمد الواثقى الذى بقيت له الولاية إلى ما بعد موت ابن الرومى ببضع سنوات، فعن تلك الدار يقول:

بينما النفس وبها بك ترجو      ملك دار معمورة مأهولة  
وتراعى آمالها منك أنجبا      ز مواعيد للمنى ممطولة  
إذ أتانى الرسول منك بأمر      يشبه الموت نفسه أو رسوله  
وهو أزعاجها بأعنف عنف      عن محل استطابت حلولة  
أنا إن تزد بيـسمناك عنى      غير شك فيسة مأكولة  
ونظن أن البيتين الآتين مما قاله فى هذه الدار بعينها:

يا ويح من أصبح فى غمة      ليس له من كربها مخرج  
فروحه تزعج عن جسمه      وجسمه عن بيته يزعج  
وقد تكون هذه الدار هى التى نزعته من المرأة، وقد تكون داراً مأجورة وهو الأرجح عندنا، لأن الشاعر لا يقول فى مزاياها إلا أنها "محل قد استطاب حلولة" و "منزل أحب نزوله" وأنها مكان:

فيه عافانى الإله من الشك      و وفك الإله عنى كبوله  
بعد جهد حملت منه ضرورياً      ليس أثقالهن بالمحمولة  
وهو كلام أشبه بأن يقال فى مكان جرب بعد تجربة غيره، وكان فيه

معنى للاستطابة والاختيار، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان. ويزيد في ترجيح ذلك أن الشاعر يقول أنه كان يرجو "ملك" دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى أزعجوه عن مسكنه . . وذلك بما تقدم أشبه . .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذى لا خلاف فيه أنه مات فى دار مأجورة. فإن الناجم يقول حين قص علينا قصته فى مرض وفاته أنه انتقل من الكرخ إلى باب البصرة فسكن فى ابن قلابة ولم يسكن فى دار ابن المعافى كما أشار عليه بعض أصدقائه. وهو يصف حالة قبيل ذلك فىقول من قصيدته البائية إلى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخوص إلى "أمد" مع الخليفة المعتضد:

ثوبى الرث والثياب طراء      وطعامى بزعمى المجشوب  
ومحلى عارية وجدارا      ت بيوتى فكلها منقوب  
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خي      ش، فعظمى يكاد منه يذوب

فالذى يفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها إلى بعض أنه ورث دارا من أبيه هى التى يقول أنه قضى فيها أيام صباه، فلا تكون على هذا إلا إرثا نشأ فيه قبل أن يدرك السن التى يكسب فيها ثمن الدور، وورث تحفًا تقتنى كتلك الكأس التى زعم أنها كانت للرشيد، وقد تكون الضيعة بعض إرثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه فى بعض حالات وفره، ولكنه كان يحتاج إلى الدين فيعرض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع خصومه وقبول دعواه، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير. فمنها:

على دين ثقیل أنت قاضیه      یا من یحملنى دینى رجائیه  
وقد حمانى إخوانى مواردهم      ووكلتنى إلى بحر سواقیه

ومنها:

أقول لما رأيت عرسي      تسترزق الله باليدين  
سيجعل الله بعد عسر      يسرا بجدرى أبي الحسين

من حسن حال ورفه بال      ورفع قدر وحط دين  
ومنها:

وارتكاب الديون إياي فى ظل      لك يهجوك باللسان الفصيح  
ففى هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه

ومثل ابن الرومى لا يستغرب منه أن يسرف ويستدين وإنما يستغرب منه أن يقصد فى نفقته ويعتدل فى تصرفه، فهو إما مضيع متلاف وإما شحيح مقتر حسبما يتعاوره من المغريات بالأنفاق وهو اجس الخوف من الفاقة، وقد كان هو مضياً متلاًفاً وشحيحاً مقترراً فى نوبات نوبات لا يدرى لها سبب ولا يضبط لها ضابط، فكان مضياً متلاًفاً على الكره منه وشحيحاً مقترراً على الكره منه كذاك، وكثيراً ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف إيمانه وشكاها إلى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال:

إلى الله أشكو شح نفسى لأننى      أرى الجود لى حظاً وشيمتى البخل  
وقد كان حق الجود بذل ذخائرى      إلى أن يرائى الله يعوزنى الأكل  
ولكن نفسى آثرت نبل مالها      وما حيث نبل المال ما يوجد النبل  
أو كما قال:

وفيم اجتهادى فى محاولة الغنى      وما للغنى عند الجواد به قدر  
وحيثاً يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخلد إلى العجز عن المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحموده لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض:

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى فشحى عليه مثل شحى على عرضى  
لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذييل مصون العرض فى طلب القرض  
فهو لا يزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة:

وأصبح الأثراء أزهـد زاهد وإن كان فى الأثراء أرغب راغب  
فلا جرم يضطرب فى عيشه ويخرج عن القصد فى حالتى شحه  
وسرفه، ويظل مدخراً لا يتففع بما ادخر أو مبدداً لا يبقى من ماله ولا يذر.

\*\*\*

على أنه لو بقى له كل ما ورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما أغنانا  
ذلك البحث فى مورد رزقه وسبب اتصال عيشه. إذ كان البيت الذى يسكنه  
مالكه لا يحسب من موارد الكسب، والضيعة التى "ما زال منها فى عناء" لا  
تبلغ أن تدر عليه رزقاً يكفيه، ومن أخباره ما يقطع بعثور جده ويؤسه الغالب  
عليه معظم حياته، فلولا هذا البؤس لما لزمه ميسم النحس ولا عيروه الخيبة  
والخصاصة، ولولا عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين البحترى ما وقع. إذ هجاه  
"فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب إليه ليريه أن الهداية ليست تقيه  
منه ولكن رقة عليه، وإنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط!!"  
فإذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لا تدل على حقيقة فقره وأنها عادة جرى عليها  
كما جرى الشعراء فى عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف ورد البحترى عليه  
دليل على عسر حقيقى ما فيه ريب، أو دليل على حجة دائمة إلى المدائح  
والصلوات يعول عليها فى ضرورات معاشه فضلاً عن نوافل لهوه.

فسؤالنا الذى ينبغى أن نسأله فى هذا المعرض هو: ماذا كان نصيبه من  
المدائح وكيف كانت خطوته عند ممدوحيه؟ والجواب الذى لا تردد فيه أنه لم  
يكن نصيباً جزيلاً ولا خطوة مغبوطة. إذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ  
جوائزهم الكبيرة التى تغنى الشاعر عن السؤال زمناً أو تغنيه عنه بقية حياته،

وإنما كانت مدائحه كلها للولاية والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم فى الرتبة والثروة، فلم يمدح خليفة قط إلا لعلاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم ويتسمى إليهم، فمدح المستعين وهجا المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين وكان مقيماً فى بغداد وابن الرومى يمدحه ويقيم معه فى المدينة، ومدح المعتمد لأن بنانا المعنى اقترح عليه مدحه - وهو يكتب لبنان - فأجابه إلى ما اقترح وذكر اسمه فى ختام القصيدة:

فلا يزال فى نعيم عيش مزجه الخفض والليان  
حتى يرى فيه كل سؤال ومنيسة عنده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالهم من لدن تولى العهد إلى أن بويع بالخلافة.

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاية العهد وما هى بالكثيرة فى عددها ولا هى بالكثيرة فى عدد أبياتها . . فقد كان لا يعنى بتطولها كما كان يطول مدائح الولاية والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها إلا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه، وكأنهم كانوا يطمعون بذلك فى تقريبه من الخلفاء وازلافه لعطاياهم، ولكنهم لا يفعلون. فظل محجوباً عن الخلفاء لا يستدعون ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفى يسأل عما قاله فى الطعام والشراب!

ونعود إلى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر إذا رضوا عنه وبالغوا فى عطائه. وليس يطول بنا البحث فى هذا لأنه واضح من الحديث الذى جرى بين البحترى وابن الرومى حيث يقول البحترى: "أقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن الثواب عنها فقلت: أعطوه لكل بيت ديناراً" فكان هذا غاية ما يرتقى إليه الموصى بجائزة وغاية ما كان ينتظر ابن الرومى من شفاعته متشفع يتودد إليه،

وابن الرومى نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعييناً فى بيت يخاطب به على بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفراء منك ببدعة ولا من أخيك الأريحي أبى الصقر

يعنى مائة دينار. فهى إذن غاية الغايات من جوائز الأمراء، ولا بد أن يحسب فى هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين فى هذا المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الشئ . . بل حساب مبالغة أخرى صريحة فى البيت وهى أن الأنعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو إليه الأريحية وكان بدعة فى ذلك العصر من غير هذين الممدوحين. فمن الرؤساء - على هذا - من كان يجيز الشاعر أن أجازه بعشرين ديناراً وعشرة دنائير وما فوق ذلك وما دونه، وكانت هذه هى السنة الشائعة والنصاب الذى حرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء .

وأنت تقلب ديوان ابن الرومى فتقرأ فيه عشر قصائد فى الشكوى والتذكير والاستبطاء والإلحاح والإنذار والهجاء إلى جانب قصيدة واحدة فى المدح الخالص من العتاب والاستنجاز، فنقدر أنه نجح فى مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فمحصل ذلك كله لا يزيد على ألفى دينار مع التسهيل فى عدد الجوائز ومقدار الدناير وألفا دينار يتلقفها الشاعر فى نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخى ولا بالوقاء من العوز والدين فى مدينة الغلاء وعصر البذخ والإسراف، ودع عنك أنها تجيء متقطعة ممنوعة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء إذا رضوا ونسبحوا بالعطاء، فأما الخطوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومى فى أكثر الأوقات وأن أكثر وإن أجاد وإن أفرط فى التزلف والاسترضاء: فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح فى شعره! فهذا

إسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة فى شعر المدح العربى من أقدم أزماته  
إلى أحدثها فتجههم له ضمن عليه، ولأى ذنب؟ لأنه قال فيها:

قالوا ألو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان  
وأى شىء فى ذاك؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه من  
نسبه. ! فقليل له هذا من أحسن المديح، فاسمع ما بعده:

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان

فتجنى وتعلل وقال: أنا بشيبان ليس شيبان بى.

فقليل له أنه لم يبخس شيبان وقد قال فيها:

ولم أقصر بشيبان التى بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشيبهم روع إذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجنى والتعلل وأقسم لا أثابه، ورجع الشاعر مغضوباً عليه

فوق حرمانه وطرده. . وقد كان رجأؤه يما جود وأطال أنه يرضى عنه

ويثاب. ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه

لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة، فراح منهم من يقول أنها دار الطبخ!

ومدح محمد بن عبد الله لن طاهر مرة فانقلب ناقداً منافساً للشاعر

وهجا شعره ولم يجزه بشىء:

مدحت أبا العباس أطلب رفته فخيبنى من رفته وهجا شعرى

فهبنى قد أعفيته من مثوبتى أئغضى له شعرى على مضض

ومن إهمالهم إياه أنه كتب قصيدة عتاب إلى أبى سهل النوبختى فنظر

إليها والرياح تلعب بها فى جانب الدار وقد خطط فى ظهرها بالمداد.!

فثارت نائرتة وأقبل يعاتب لإهمال العتاب بعد أن كان يعاتب لإهمال الثواب:

رقعة من معاتب لك ظلت ولها فى ذراك مثوى مهان

سَطْر العَابِثُونَ فِيهَا أَسَاطِرُ عَرَفْتُمْ مَتْنَهَا فَمَا يَسْتَبَانُ  
خَطَّ وَلَدَانِكُمْ أَفَانِينَ فِيهَا أَوْ رَجَالًا كَأَنَّهُمْ وَلَدَانُ

وَقَبِيحٌ يَجُوزُ كُلَّ قَبِيحٍ رَقْعَةٌ مِنْ مَعَاتِبِ لَا تَصَانُ

وَيَتَمَاجِنُونَ فَيَقُولُونَ إِذَا مَدَحَهُمْ أَنَّهُ يَنْظُمُ الشَّعْرَ كَأَنَّهُ نَائِمٌ . . . فَيُرَى  
الْمَسْكِينَ فَرَضًا لَزَامًا أَنْ يَسْلَمَ لَهُمُ الْعَيْبَ الَّذِي عَابُوهُ وَأَنْ يَسْتَخْرِجَ مَعْنَى  
جَدِيدًا مِنْ مَعَانِي الثَّنَاءِ عَلَى ذَلِكَ الْمَدْحِ الَّذِي تَمَاجَنَ عَلَيْهِ:

مَدَحْتُكَ مَدْحَ الْمُسْتَنِيمِ إِلَى امْرَأٍ كَرِيمٍ فَقَلْتُ الشَّعْرَ وَسَنَانُ هَاجِعًا

وَلَا تَرَى لَهُ شَعْرًا فِي أَحَدٍ مِنَ الَّذِينَ انْقَطَعَ لَهُمْ وَأَكْثَرُ مِنْ قَصْدِهِمْ إِلَّا  
رَأَيْتَهُ يَشْكُو فِي خُطَابِهِ لَهُ أَنَّهُ يَظْلَمُهُ حَقُّهُ وَيَخْصِمُهُ بِالْحَرَمَانِ دُونَ أَمْثَالِهِ وَمَنْ هُمُ  
أَقْلَمُ مِنْهُ . فَهُوَ يَقُولُ لِبْنِي وَهَبُ:

فَازَ الْوَرَى مِنْ رِيحِكُمْ بِسَحَابٍ هَطَلْتُ، وَفَزْتُ بِسَافِيَاتِ تَرَابٍ  
وَلِبْنِي طَاهِرُ:

أَرَى الشُّعْرَاءَ حَزَا عِنْدَكُمْ سَوَاءَ عَيْبِهِمُ وَاللِّسَنِ  
سِوَايَ! فَإِنِّي أَرَانِي امْرَأً هَزَلْتُ، وَكُلَّهُمْ قَدْ سَمِرُ  
وَلِبْنِي هَاشِمُ:

بَنِي هَاشِمٍ مَالِي أَرَاكُمْ كَأَنكُمْ تَجُورُونَ أَحْيَانًا وَأَنْتُمْ أَوْلُو عَدْلٍ  
كَمَا لَوْ هَجَاكُمْ شَاعِرٌ حَلَّ قَتْلَهُ كَذَاكَ فَأَوْفُوا مَا دَحًا دِيَةَ الْقَتْلِ  
وَلِإِسْمَاعِيلِ بْنِ بَلْبَلٍ:

أَبَا الصَّقْرِ لَسْتُ أَرَى مَهْدِيًا لَكَ الْمَدْحَ - غَيْرِي - إِلَّا مَشَابَا

وَلَعَلَّ قُرْبَهُ مِنْهُمْ وَحَسْبَانَهُ عَلَيْهِمْ هُوَ الَّذِي أَنْزَرَ نَصِييَهُ مِنْ جَوَائِزِهِمْ

وحفاتهم ، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم وإسهامه أحياناً فيما يسهم فيه الجلساء والندماء من الطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وحدهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة فى مناسبات التهنئة والثناء فى معارض الثناء ثم لا يتنظر منهم الخلع والصلوات على كل قصيدة ولا فى كل موسم كما يتنظرها الشاعر الطارئ الذى يلتقى قصيدته ويذهب لطيته . وهم فوق هذا يمتنون عليه أن قبلوه فى مجالسهم وأحضره موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولى النعمة ، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل الظليل :

إذا أمتاحهم أكلة عبد	وه تعبيد رب لمربوبه
يخالون أنهم بلغو	ه بالقوت أفضل مطلبه
وأنهم حرسوا نفسه	به من غوائل مرهوبه
يذيل مضيفهم ضيفه	كملبوسه أو كمركوبه

والأغلب عندنا أنهم كانوا يقلبونه فى مجالسهم وحضرونه موائدهم غراماً بضروب الشذوذ والشهرة وكلفا بالطوائف والملح كما هو دأب أصحاب المجالس فى كل أمة ، فكانوا يأنسون به فى بعض حالاتهم ويقربونه لغرابه أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكانهم اصطنعوه للأغراب لا للمودة وتخيره للمظهر لا للثقة والكرامة ، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسيط ، وكان يعلم بهذا فتسوءه فوق مساوته بالحرمان ويعجله الغيظ الذى لا يقوى على كظمه أن يسكت عن العتاب فى مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حجب كما قال فى مرة من هذه المرات للقاسم :

فى جلنار وأختها دبسية	يا ابن الوزير لعاتب متععب
أحضرتموه جلنار وأحضرت	دبسية الكبرى لغيرى تحجب

وكان يحار فى ها الحجب ولا يدرى ما علتة ولا ما النقص الذى  
استوجهه، ويسائل الأمير عن نفسه:

هل ترى الغفلة شابت حملة  
هل ترى العى يواخى صمته  
هل ترى الشك عليه غالباً  
هل رأى منك قبيحاً بثه  
هل لديه لك سرر ذائع  
أم ترى النكراء شابت فطنه  
أم ترى الغى يواخى لسنه  
عند حق، أم تراه يقننه  
أم رأى منك جميلاً دفنه  
أم أمانات غدت محتجنه

لكن حيرة ابن الرومى هذه قد ترشدنا إلى أسباب حجبه لأنها ترشدنا  
إلى بضاعته التى أعدها للمنادمة وحسب أنه مستحق بها التقريب والمصاحبة،  
وهى أدوات العلم والبحث والشك فى موضع الشك واليقين فى موضع  
اليقين! وما هى بالزوم ما يلزم النديم فى مجالس الخلوة فضلاً عن محالس  
الاحتشام، فقد يستغنى النديم عنها كلها بالقدرة على المصانعة ومسايرة  
الأهواء، فى حين أن العلم لا يغنيه عن تلك القدرة ولا يسد مسدها فى  
مجالس الاحتشام ولا مجالس الإباحة.

بقى حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأى جلسائه  
المحتجزين عنه فى خلوات الإباحة: لأن من كان مثله مطبوعاً على  
"الاعتراف" بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه ويحفظ سرّاً رآه ساعة لهوه .. فإذا  
حجبه الأمراء عن مجالس الخلوة فلائنه لا ينفعمهم فى تلك المجالس ولا يؤمن  
عندهم على أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان ونوادى رفع الكلفة  
وإرسال النفس على السجية ..

لكنهم كانوا يحجبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على  
حجبه عن المجالس الخاصة، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به  
الدنيا ويتمر له كل من يتمى إليه أو يتمى إليهم:

تعرفت فى أهلى وصحبى وخادمى هوانى عليهم مد جفانى قاسم  
فيعود يسأل الإذن فى المقابلة ويكتفى به عن سائر المطالب:

بل أنت معنى من جميع حوائجى إلا لقاءك فى السواد الأعظم  
لا أبتغى ما كنت أسأل مره حسبى بوجهك، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجبه القاسم عن لقائه وامر الخدم برده، وكان القاسم  
وأمثاله يمنعونه بعض المنع وفى نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه،  
فأما إذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا يبنذونه ويوصدون دونه كل  
باب ويخلون بينه وبين الحجاب يدعونه ويتصلفون عليه، والحجاب لا  
يعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه ويأمنون من سادتهم  
الرضى بإيذائه، فإن الحاجب منافس لكل جليس ينزل من سيده منزلة الخليل  
والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم، وهو يود أن يدل عليه بقدرته  
على الرد والإذن الإقصاء والتقريب والتميز فى الجفاوة والتعظيم، فكان ابن  
الرومى فى فترات الإقصاء والإعراض يقاسى شديداً من غلظة الحجاب ويسرع  
كدأبه إلى شرح ما يلقاه منهم على طارق مهيض الجانب من كل حاجب  
غاضب أو متغاضب:

وكم حاجب غكبان كاسر حاجب محا الله ما فيه من الكسر بالكسر  
عبوس، إذا حييته بتحية فيا لك من كبر! ومن منطق نزرا!  
يظل كأن الله يرفع قدره بما حظ من قدرى وصغر من أمرى  
إذا ما رأتى عاد أعمى بلا عىمى وصم سمياً ما بأذنيه من وقر  
ولقد كان يحمد الله أحياناً أنه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغير أذى  
فى جسده:

عم الأذنين بإذنه وتخلفت حالى، فلم أذكر ولم أتوهم

لكن نبذت مع اللفيف بسمع      وبمنظر للشامتين ومعلم  
بل ما أصابتني هناك شماتة      لكن غببت لأنتى لم أطم!!

فلم يكن رزق الرجل إذن متصلاً من الجوائز ولا من أطفاف المجالس،  
ولم تكن حاجته إلى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التي لا تنم عن فاقة  
حقيقية في معظم أيام حياته، فسؤاله الدقيق والطعام والملبس سؤال محتاج  
إلى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال. ولنا أن نشك في حاجته  
عاجلاً أو آجلاً إلى ذلك الشيء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة  
الشعراء في الأزمان الماضية، ولا سيما في ذلك الزمان الذي اضطربت شئونه  
وقل ضمائه وتلاحقت طوارئه، فمن مسائل ابن الرومي ما يصعب الشك في  
صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد ييأس:

إن لله غير مرعاك مرعى      يراعيه وغير مالك ماء  
وتيقن متى جنيت على عبد      ك ضيماً وضيعه وعناء  
إن لله بالبرية لطفاً      سبق الأمهات والآباء  
.....

لى خمسون صاحباً لو سألت الـ      قوت نيهم أنفيتهم سمحاء  
أترى كل صاحب لى منهم      يمنع الشهر بلغتى أجراء  
لى فى درهمين فى كل شهر      من قئام ما يطرد الحوجاء

وكثيراً ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوسل إلى الزرّماء أن يجربوه فى  
ولاية أو جباية أو يتخذوه لعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب  
القلن والانتظار، فكانوا يضمنون عليه بما سأل ويأبون أن ينقذوه من سوء تلك  
الحال، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب أيام دولتهم ويترجى الخير الجزيل  
على أيديهم، فلما صارت إليهم الوزارة لم يصنعوا شيئاً وزادوا أنهم قطعوه

بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر  
مقامه بينهم وربما رأوه حيناً وهو مقدم على سواه

أنا من عراقك وباب دارك موحش من كل مؤتلف على مقدم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل فى الديوان بوظيفة  
صغيرة يشاهاها عليه ولا يثبتها فى سجل الأرزاق المرصودة المضمونة بعض  
الضمان، ومن شأن هذه النوافل أن تحتاج أبداً إلى التذكير والتنبيه فما لا بد أن  
يجرر إليه التذكير والتنبيه من السأم والجفاء، فإذا حصل ذلك - ولا بد من  
حصوله - خسر الوظيفة وصاحب الوظيفة وباء إلى شر مما كان.

والعمل الوحيد الذى ذكر فى ديوانه هو عمله فى الكتابة عند آل بنان  
المغنى الذى كان ينال الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومى أن يمدح الخليفة  
بلسانه، وكأنه لبث فى هذا العمل عشرين على ما يجوز أن يؤخذ من  
قوله:

والغناء الشديد شدواً وضرباً سحنة قد ملأت منه الإناء  
ظلت عشراً كواملاً فى مغانيه أغنى وأسمع الأنحاء  
ولن يكون ذلك العمل إلا ضئيل الأجر مغبونه كما يظن بأجر يتناوله  
كاتب مغن. وكما يدل بيتاه المشهوران فى بنان:

تعالى جرد دينارى بنان فحلا حيث حل الفرقدان  
ولو أن النفوس بحيث حلا غدون من الحوادث فى أمان  
فإن قلنا أن "الدينارين" هنا للتطيف لا للحصر فأقصى ما يرتقى إليه  
الديناران أن يكونا عشرة! وعشرة دنائير ليست بالرزق الطيب فى عصر كعصر  
المعتمد بمدينة بغداد ..

فمعيشة الرجل فى جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها

وهو مع المعرفة والتذوق ملدود محروم طويل الهم بأمر الرزق مشئت الفكر بين القلق والحية والمطل والحرمان، وهى معيشة مزعجة مكهربة تهد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون إلا وخيمة الأثر فى نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل الأعصاب

## لماذا فشل؟

فشل لأنه كان قليل الحيلة صفرا من الدهاء، ذلك أوجز ما يقال فى أسباب فشله، فما من عمل كان يحتاج إلى حيلة إلا كان ابن الرومى فيه مخفقا أو كان مصدوقا عنه حتى اللعب، ومن ثم كراهته للعبة الشطرنج التى راجت فى أيامه وكثر التفتن فى طرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان أحدهم يلعبها وظهره إلى رقعتها، وهو الذى يقول فيه:

ثقل الشاه حيث شئت من الرقعة طبيا بالقتلة النكراء  
غير ما تناظر بعينك فى الدس ت ولا مقبل على الرسائل  
بل تراها وأنت مستدير الظهـر بر بقلب مصور من ذكاء  
ما رأينا سواك قرنا يولى وهو يرى فوارس الهياجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة، فينقلب هزقا بها ويقضى عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع!

أرى لعبة الشطرنج أن هى حصلت أحق أمور الناس إلا تحصلا  
تعلة بوابين جاعا وأرملا بياب قليل خيره، فتعلا  
أو يقول:

تفرست فى الشطرنج حتى عرفتها فإن صح رأى فهى بالوعة العقل  
وحسب الرجل أن تقل حيلته فى أواسط القرن الثالث ليكون مقضيا  
عليه بالهلاك أو بالفاقة وإن اتصل بذوى الأخطار والعاملين فى سياسة

الدولة، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقة لأنه اتصل بميدان هو أحوج الميادين إلى المكر وسعة الحيلة، فمدائح ابن الرومي نفسه أدل شيء على ضرورة الدهاء في أيامه وشيوع هذه الخصلة بين أبناء عصره. فإنه مدح أشتاتاً من ذوى المقامات بينهم الوزير والقائد والمديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم وثناء متشركاً بين من يطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يطلب منه ولا يعيبه أن يفوته، وإليك أمثلة قليلة نكتفى بها عن إحصاء كل ما جاء على هذا المعنى في مدائحه الكثيرة.

قال في على بن يحيى النديم:

فل بالحجة الخصوم وبالكيد  
مد زحوف العدى ذوى التاليب  
وقال في ابن ثوبان الكاتب:

ويكيده يروى القنا  
علقا ويختصب اختصاصه  
وقال في القاسم بن عبيد الله الوزير:

يرمى بدهيائه من فلائقه  
في وجه دهباء من فلائقها  
وقال في عبيد الله بن عبد الله القائد:

يصاول القرن أو بخاتله  
جلداً أريباً بعيدة سريره  
كالليث في بأسه وآونة  
مثل الشجاع الخفى منسربه  
وقال في الجنود الأتراك:

ترى شبه الأساد فيهم مبيئاً  
ولكنهم أدهى دهاء وأنكر

وقد صدقت في هذه المدائح فطنة ابن الرومي إلى صفة عصره والخلق الذى لإبد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التى اشتدت الحاجة إليها بين القلائد

والدسائس والاضطرار الدائم إلى اقتناء الشر ومداراة الأقوياء والحيلة لما تأتي به طوارئ الأحداث، وأحجى أن تشتد الحاجة إليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدورة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندماء ومغتنمي الفرص من صمود هذا وهبوط ذاك وإقبال هذه الدولة وأدبار تلك، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة في البيئة التي عاش فيها ابن الرومي خاصة، فما كانت أيامهم تنقضى على غير خليفة يعزل أو يدبر له العزل وولى عهد يخلع أو يدبر له الخلع ووزير يكاد له أو يكاد لخصمه وصاحب مال يصادر أو يسعى لمصادرة غيره، وهذا وأشباهه شغل يفتقر من يزاوله ويعيش في بيئته إلى الدهاء افتقاره إلى أداة المعيشة الأولى وسلاح الحرب الألزم له من كل سلاح.

في ذلك العصر عاش ابن الرومي وهو أعزل لم يستعد له بعده ولم يحسن قط أن يتدهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد. وراح يتقلب فيه بإحساس طوع الخواث ولسان طوع الإحساس! فكان نقيض الرجل الذي يصلح لمثل زمنه. إذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل أن يملك إحساسه ولا يطيعه، وأن يجعل بين إحساسه ونسائه سداً منيعاً من الرياء يستتر خلفه، فأخطر ما يجر الخطر على المرء في عصور القلق أن يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله، كما كان يفعل ابن الرومي ومن طبعوا على غراره. وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء في ممدوحه إلا وهو يشعر بخوه منه وحاجته إليه، غير أن الشعور بالحاجة غلب الدهاء لا يعطيه الدهاء! كما أن شعور المريض بالحاجة إلى القوة لا يعطيه القوة، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس في خلقه، فلا يفيد الأسى ولا التكلف إلا أن يبدى من ضعفه ما هو أولى بإخفائه.

\*\*\*

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال في إجمال أسبابه.

وهو مع هذه الغرة التي تعد من أكبر الجنايات فى عصر الدسيسة والمداورة - كانت له جناية أخرى تعد من أكبر الجنايات فى جميع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد. كان غريب الأطوار ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار. لأنها تفرده بين الملاء فتنبه وحده هدفاً لكل ما فى الطبائع الإنسانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن ومجانة. و "الشيء مستوحش إذا غربا" كما يقول، فحسب المرء أن يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه ويكون "المجتمع" قد أصدر عليه حكماً سمرمداً! كذلك الحكم الذى كان يصدره السلطان فى غابر الأزمان بإهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه. فلا ينشفه أحد ولا يتخرج من العدوان عليه والتعرض لغضبه، وإنما أساس الإنصاف أن يعرف للإنسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام، فإذا سلب هذا الحق واشتهر عنه أنه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويعجب والناس لا يعجبون ويثور والناس لا يثورون ويضطرق وهم لا يعرفون فيم يطرقت ويهلل وهم لا يشعرون فيم يهلل - فهم إذن فى حل من إسخاطه واهتضام حقه! وهو إذن طلبة السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذى أهدر دمه وأباح أمنه ماله، فلا يشكو إلا وهو متهم ولا يشكى إلا وللشاكى عليه حجة . . وكل ذنبه بين الناس أنه من معمدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم، وقد يكون خيراً منه وأجدر بالإنصاف.

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المؤلف من عمله غريباً يفعلته هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز أحد عليه. لأن سمعة الغرابة هى المهم فى هذا الصدد، وليست الحوادث التى توصف بالغرابة.

وقد يعنى الغريب الأطوار من هذا الإهدار "إذا كان مع غرابة أطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتصم بها من عشيرة تغار عليه أو جار يميل إليه،

فربما أساغوا منه غرابته فى هذه الحالة وعدوها حيلة تزينه وظريقة ترغيبهم فيه . فأما أن يكون ضعيفاً لا حول له ولا حيلة وغريباً فى خلقه وشعوره فذلك هو المجرم المضاعف الذى لا شفاعاة فيه ولا نجاهة من عقوبته ، وقل فى عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه ، مبالغ فيها كما يبالغ فى إيذاء كل معدوم النصر .

\*\*\*

عاش ابن الرومى فى ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غريب الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معذب بما يصيبه . وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بإنصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب - وعاف السعى وانطوى على اليأس ووجدت نفسه لذلك وجداً تعرفه من صرخته :

لا عذر لى فى أسفى بعدها على العطايا . عفتها! عفتها!

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس فى تركيبه وحاجته إلى من يرأمه ويعينه صارقاً له عن السعى فى طلب الرزق والتزوح عن الوطن ، جانباً به إلى القعود حيث قعد لا يرى إلا أن البلاد كبلده وأن الأخبار والأشرار سواء فى قلة إنصافه .

ذقت الطعوم فما التذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقاً للجلد والمشقة فى أيام الشباب بله المشيب ، ولكنه كان ربما رحل فى تلك الأيام إلى الأبله أو سامراً " سر من رأى " أو بعلبك ، وهى فيما نظن أبعد ما وصل إليه فى رحلاته . فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقى فيها إلا مثل ما لقى فى وطنه :

لقد أنكرتى بعلبك وأهلها بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل

ويرسل إلى أصحابه في بغداد يتشوف ويقسم لا أزمع بعدها سفرًا ولا  
أثر على قربهم مطمئناً:

وأن يقض لى الله الرجوع فإنه على له إلا أفارقكم نذر  
ولا أبتغى عنكم شخصاً ورحلة مدى الدهر، إلا أن يفرقنا الدهر  
فما العيش إلا قرب من أنت ألفه وما الموت إلا نأيه عنك والهجر  
و" طول مقام المرء فى الحى مخلوق لدياجيته " كما قيل . فإذا أحصينا  
أسباب الجفاء الذى كان يشكوه من ممدوحيه وأسباب فشله بعبارة أخرى، فلا  
شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التى رجحت عليه غيره  
من أنداده الشعراء ومن هم أقل فى الطبقة، لأنهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا  
يضمن عليهم الأمراء بالعطاء فى السنة بعد السنة أو بعد السنوات، ولأنه كان  
مقيماً أمام أعينهم فى كل يوم فلا يلقى عندهم حفاوة الطارق بعد غياب .

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصيرة التى كان يظنها غربة طويلة إلا  
وهو فى إبان القوة والطمع فى الولاية والجوائز. فلما طال عليه الأمر ووطن  
نفسه على اليأس قعد فى بغداد لا يريمها وقنع بما يتفق له وهو واع فى بلده  
وأبى أن يجيب من يستدعيه إليه ويحضه على " الخطب لناره . . لأنه يكلفه  
ركوب البحر وهو أخوف ما يكون من ركوبه .

خضضت على حطبي لنارى فلا تدع لك الخير تخويفى شرور المحاطب  
أيعزب عنك الرأى فى أن تسيبنى مقيماً مصوتاً من عناء المطالب  
وما هى بعد إلا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر إذ قل فى  
الولاية من كان يعنى بشأنه وشأن رزقه فى حالى شبابه ومشيبه، وقل فيهم من  
كان يرعى حقه ويخلص فى مودته . .

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقاً عندهم فتشفع  
إليهم فى أتباعهم كما تشفع لمهندي القاسم الأسير المغضوب عليه " وما ضيف

بأضعف من أسير" . . أو كما تشفع لكتابه الذين "أضحوا وهم أسوأ الكتاب أحوالا" . . أو كما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسن بن عبيد الله إلى أبيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . إلا أنها شفاعات لا نعرف ماذا أوجبها على ابن الرومي ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع لديهم، فهي إن دلت على شيء قاطع فإنما تدل على أن قوماً ذوى حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأمنون من ابن الرومي تلبية لا يأمنونها في صحابة الأمراء غيره، وربما أغراهم به سداجة طبعه وسرعة استمالاته . ولا سيما في وساطة الحسن عند أبيه والتماسه منه أن يسوى بينه وبين أخيه القاسم، لأنه:

ليس يوهى أخاه شذك إيا ، ولكن يزيده في اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة أعراض القاسم عنه ومجافاته إياه تلك المجافة التي قيل أنها انتهت بقتله . فغير ابن الرومي لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب في شرعية تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من أخيه، إذا يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت وإلا يعرض نفسه لغضب صاحب الحظوة من أجل أخ له مهجور ضعيف الأمل في النجاح، فاستشفاع الناس بابن الرومي لا يدل على أكثر من هذا ولا على أكثر من أنهم أرادوا للتبليغ والتذكير عسى أن ينهبوا غافلا ويسمعوا من لم يسمع . وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة في رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر الوساطة بين الحسن وأبيه، فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعى له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه وصيائنه في قربه ويعدده فذلك احتمال بعيد تناقضه أخباره وأشعاره على السواء .

وما نخال أن أحداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومي من المؤاخاة في الأدب مثل ما كان بينه وبين أبي سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكي

المعروف، فقد كانت بينهما مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند والصديق  
للصديق في بعض الأبيات، فابن الرومي يغرب في مدحه فيقول:

أعلم الناس بالنجوم بنونو      بخت علمًا لم يأتهم بالحساب  
بل بأن شاهدوا السماء سموا      ورقيا في المكرمات الصعاب

وأبو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاع به بجوابه:

هكذا يجتنى الودود من الإخو      ان أهل الأذهان والآداب  
نظم شعر به ينظم شمل المد      جدد كالعقد فوق صدر الكعاب  
قد سمعنا مديحك الحسن الغد      مرض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون إلا بين رجلين صديقين أو كالصديقين فيما  
توجه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة. فانظر مع هذا كيف كان أبو سهل  
في رعايته لحقه وعنايته بأمره وصيانتته لقدره؟ كان كما قال فيه:

لى صديق إذا رأى لى طعامًا      لم يكد أن يجود لى بشراب  
فإذا ما رأهما لى جميعة      كفيانى لديه ليس الثياب  
فمتى ما رأى الثلاثة عندى      فهى حسبى لديه من آرابى  
لا يرانى أهلا لملك الظهرا      رى ولا موضع العطايا الرغاب  
وكأنى فى ظنه ليس شأنى      لهو ذى نهية ولا متصاب  
فى طبع مـلائكى لديه      عازف صادف عن الأطراب  
أو حمارية! فمقدار حظى      شبعة عنده بلا أتعاب  
أنا حظى اللقواء لديه      مع ما فيه من الإعجاب  
ليس ينحك شاهدًا لى بفهم      وبيان وحكمه وصبواب  
ومتى كان صح باب من اللد      ه توقعت منه إغلاق باب

نعم! مع ما فيه من الإعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان. فقد كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند أصحابه الموسرين جميعاً أن يعجبوا به أو يتعجبوا لفظته وغرائب أحواله، أو يسجلوه فى الشعر مساجلة يظهر بها قدرتهم على مجازاة شاعر قدير منقطع للشاعرية، أو يسامروه سمرًا يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستادوه الثمن غالباً من صبره وماء وجهه. فإما ما وراء ذلك من نفع ومبرة فليس من حقه عندهم وليس له منه كما قال إلا نصيب الملائكة أو نصيب الحمير...! وما كان واحد من كبار ممدوحيه عاجزاً عن إغائته وإصلاح أمره وتدبير عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح ليأخذوا منه أكثر مما يعطوه. وليأبوا أن يهبوه ما دام فى وسعهم أن يمنعوه. وفى قدرتهم كانوا أن استحضروا النية فى إصلاحه وجبر نقائصه وتلافى عيوبه. وفى قدرتهم كانوا إن يجدوا سبباً واحداً على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحمة، بيد أنهم لم يجدوه ولا حاولوا إيجاده... ووجدوا أسباباً شتى لحرمانه وإهماله والاعتذار من توجيه الأعمال إليه واتخاذها للكتابة أو النظر فى بعض مرافق الديوان.

ونحن نقراً قوله لأبى سهل الذى تقدم ذكره:

أتزعم أنى إن توليت قربة رأيت أزورارى عن صديقتى من الفرض؟  
وقوله للقاسم:

أركيكا رأيت عبدك صفرًا لأجنى فيه؟ أم جنى شنعاء؟

ففهم جملة هذه العلل التى كانوا يعتلون بها عليه، نفهم أنهم كانوا يكرهون توليته لثلا يستقل عنهم ويعرف له مورداً غير موردتهم أو أنهم كانوا يحسبون عليه غرارته ذنباً يحرمه الولاية كما يحرمونه العطاء وكفالة الرزق من جراية لا يكدرها المن والتسويق، وهى - ولا مرأ - أسباب طبيعية للحرمان

فى الحياة نفهمها حين نبحت عن سر حرمانه، ولكنها لا تصلح عذراً للمتفضل الذى يريد الأفضال ولا تعد ميزاناً رفيعاً للمروءة ومكارم الأخلاق. فمن الطبعى أن يأكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغرير وأن ينهب المحتال مال الطفل اليتيم والمغتال مال الأعزل الضعيف، إلا أن البون بعيد جداً بين هذه الأسباب الطبيعية فى الدنيا وبين معالى الهمم ومكارم الأخلاق، وأن هذا البون البعيد جداً لهو مناط الحمد واللوم والشرف والفضة والفضل والقصور.

\*\*\*

وكان لفشل ابن الرومى وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه . .

نعم كان فشله وحرمانه سبباً لنفرة الناس منه واتهامهم إياه، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياها وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة، وشكاية أشد عليه من سائر الشكايات لأنها تحرمه حق الشكاية:

يا رب ما أطول البلاء وما أكثـر فى أن بليت لوامى  
يلومنى الناس أن حرمت وما ألزمنى الله غير إحرامى

فإذا شكا فهو مذنب، وإذا سكت فالرزية عنده أعظم من السكوت وهذا ألم ما يبتلى به المنكوب وأظلمه وادعاه إلى المزيد من نكبته وظلمه . . ولكنه كذلك كبعى مألوف فى الناس، لأنهم لا يكفلون أنفسهم الرأفة بأحد إذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياها! فإذا حرم فما ذاك إلا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء، وإذا كان كذلك فهم أولى بالأجفال منه والهرب من عدوى شقائه! وإلا فماذا يصنعون له وهو الجانى على نفسه؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء؟ فمن حرم وفشل فليحرم أبداً وفشل أبداً، وليكن مصابه حجة للمزيد من مصابه ودليلاً على شقاء مكتوب عليه، لا خلاص منه ولا للناس فيه حيلة!

وتضاف إلى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هي  
 مما يجنيه إنسان على نفسه أو يرده إنسان عن حوزته، فتحق عليه تهمة الشؤم  
 وتثبت عليه مطاردة الأقدار. ! فلا رأى للعاقل إلا أن يفر منه ويلتمس العصمة  
 والأمان بالبعد عنه . . وقد أطبقت على ابن الرومي النقمتان نقمة الفشل  
 والحرمان ونقمة الفجائع في أهله وولده والتلف في زرعه والحريق في ثرائه  
 والضياع في عقاره. فالرجل لا ريب مشؤم يستعاذ منه، وطريفة للأقدار لا  
 يجيرها مجير وهو آمن على سربه، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريفة  
 من القدر الذي يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها، ثم لا يلومن إلا  
 نحسه ورأيًا سخيًّا سول له التورط في المهالك وحيل إليه أنه مجير من قدرة  
 الله وراد لما لا مرد لحكمه.

وحق لأبناء القرن الثالث أن يخافوا المشؤمين وطرداء القدر لأنه كان  
 عصر السعد والنحس والقلقل والمفاجآت، مع الإيمان بما يصحب ذلك من  
 الخرافات والأوهام، ولأنه العصر الذي تمت فيه ترجمة الكتب الهندية  
 والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم والطوابع ما كان منها خرافيًا  
 كاذبًا وما كان من قبيل العلم الصحيح، وزاد في شيوع تلك الأحاديث أن  
 الدولة كانت يومئذ للفرس وأن آداب المجالس في قصور الملوك والشرفاء  
 كانت آداب الفارسية والناشئين في البلاد الفارسية، وكانت لهؤلاء ساعات  
 للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب  
 تارة ولا يطيبان تارة أخرى، بل كان لكل شيء في الأرض والسماء حسابه  
 وإرصاده وبشائره ونذره، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل إلا بعد استشارة  
 للنجوم وموافقة لأرصاد الطوابع، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم  
 أمة عبدت الكواكب زمانًا وجعلت صفات الخير والشر وأسندت إليها تدبير  
 الحوادث وتحويل الدول وتقدير المقادير.

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيم للقرن الثالث كل أسباب العناية بالنجوم

فظهر في أوائله مذهب "هالي" الذي رأيناه هنا في دورته الأخيرة قبل عشرين سنة، والذي قال فيه أبو تمام في تلك الأيام:

وخوفوا الناس من دهياء داهمة      إذا بدا الكوكب العربي ذو الذنب  
وصيروا الأبراج العليا مرتبة      ما كان منقلباً أو غير منقلب  
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة      ما دار في فلك منها وفي قطب  
وليس يصعب علينا أن نتمثل كيف يكون أثر ذلك المذهب المرهوب أو لظهوره في زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناص قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقة ومكذوبة وكثر بينهم جداً من يعلقون حوادث الأرض بأبناء النجوم . .

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب في كلام شعراء القرن الثالث والقرن الذي بعده من أثر هذه العوامل كلها فألمع إليها أبو تمام والبحترى مراراً وأفرط ابن الرومي في الإشارة إليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهذه المطالب. وتماذى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعري مكفوف البصر غير صالح للتوسع في هذا الباب. فكان رهن المحبسين يذكرها في سقط الزند واللزوميات ويصف مواقفها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكي مشغول بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر في جهل هذه الصناعة.

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم في الأسرتين اللتين علق بهما ابن الرومي وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبر من نصيب سائر ممدوحيه: نعى أسرة بنى طاهر وأسرة بنى وهب، وهما أقوى وأغنى من حكم في ذلك الزمان من الأسر التي تصرف في الدولة وتصدى أبنائها للمدح والعتاء وتوليه الانتصار وعزل الخصوم، فلما مات محمد بن عبد الله ابن طاهر وخسف القمر تحدث أهله وتحدث الناس أن القمر خسف لموته،

وكتب ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه، وذكره ابن الرومي في بعض شعره فقال:

بات الأمير وبات بدر سمائنا      هذا يودعنا وهذا يكسف  
قمر رأى قمرًا يجود بنفسه      فسبكي عليه بعبرة لا تذوق

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله " بن سليمان بن وهب " أن يكون كسوفها مؤذنًا بموت عظيم في الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومي هو الذي هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب إليه:

لا تهولنك شمس كسفت      دون أن تطلع من مغربها  
هان ذاك الرزء فيها مثلما      هان ما عزك من مطلبها  
هي نار وأفقت مطفئها      ليست بالآيس من ملهبها  
فأبك من تشق من معطبه      فلقد أومنت من معطيها  
ضل باك أن أبيخت جمرة      سوف تذكياها يداً مثقبا  
ليس للشمس إذا ما كسفت      غير شمس تخلف الشمس بها  
من بنات الروم لا يكذبنا      لونها المشرق عن منصبها

وأنها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومي مهدي روع في هذا وهو أحوج إنسان إلى من يهدئ روعه ويذهب عنه الوجع من نذر الزمان وعلاماته!!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه، وفي بعض معاتبته إشارة صريحة إلى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتناهم إياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرف لهم النعمة، مخافة على

سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة:

نحن ميامين على أننا      على أعادتك مشالهم  
لما دخلنا دخلت نعمة      كان لها حولك تحويم  
ولم يفخمك الذى نلته      بل للعطايا بك تفخيم  
وكان يقول القاسم بن عبيد الله:

طلعت بأيمن ما طائر      عليكم وأسعد ما طالع  
فجاءكم دولة غضة      تفييا فى ثمر يانع

وكأنما كان نحاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبني وهب وينسبون إليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة، فكان يبرأ إليهم ويسرع إلى تفنيد ما نسبوه إليه قبل أن يحسب عليه، وما هو فى حاجة عندهم إلى اختلاق الذنوب:

ولقد خفت والبرىء ملقى      كل ذنب برأسه معصوب  
أن يقول الوشاة بى أن شؤمى      قاد هذا الشخص، والإفك حوب  
وجوابى أن لم يغيبوا وشاهد      ت فزالت مخاوف ونكوب  
أنا من لا شك فى اليمن منه      أو يمين ابن فجرة ويحوب  
جئت والدولة السعيدة خلفى      رأسها فى مقادتي مجنوب

\*\*\*

فحسب الإنسان فى ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال أنه مسعود أو منحوس، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشتد لصوقها به إذا كان فى أحواله وأخلاقه ما يغرى الناس بالإلحاح فيها

والإصرار عليها. وهل كان شيء من ذلك ناقصاً عند ابن الرومي؟ كلا! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالماً ذكياً ولا حظوة ولا جاه، فما الذي يحول بينه وبين حظوة أمثاله إلا أن يكون الجد العائر والطالع المشؤم؟! ولأنه فقد أباه وأمه وأخاه وزجته وأبناءه وعاش بعدهم كثيراً مستهدفاً للبلاء من الأيام والناس. وهل يفقد كل هؤلاء ويعيش بعدهم في تلك الحال إلا المنكود المرزأ المنحوس؟ ولأنه منى كما رأينا بالجراد في ضيعته والحريق في ماله والضياع في عقاره. وهل يمني بذلك - مع مصائب الموت والضنك - إلا من شمله النحس في شبكة لا نجاة منها لمشبوك؟

ثم هل كان ابن الرومي مبرءاً من تلك الخلائق التي تغرى به أهل العبث والمجون وفيلحون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه؟ لا! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير، ولزمته الحجة من ذكائه وأدبار حظه ومن مصائبه في ذنوبه وصحبه، فكان الذكاء نكبة عليه تعد في النكبات، والمصائب ضعفين ما يصيبه نم شرها وما يصيبه من سمعة نحسها وولع العابثين بالسحر منها، وأنه لمصاب عظيم.

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل حديثهم في كل نكبة وفي كل نعمة، ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشؤمين منحوسين إذ كانوا كلهم قد فجعوا في الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخبار والأشرار. وإذا كان ابن الرومي قد فقد أعداءه كما فقد أحيابه فلا فضل لشؤمه على سعيه ولا رجحان لطواع الخيرات فيه على طواع الشرور. ولكنها الحظوظ التي لا تعرف القسط في الموازين!! ومن الحظوظ التي ألمنا بأسبابها أن يكون ابن الرومي منفرداً بسمعة الشؤم في ذلك العصر دون سائر المشؤمين!!

وسواد الناس لا ينصفون مختارين، ثم هم لا ينصفون إذا كان الإنصاف يكلفهم واجباً أو يحرمهم فكاهاة يضحكون منها! فليس لابن الرومي إذن إلا

أن يبوء وحده بجزيرة ضعفه وعقائد زمنه، فغاية الحكم فيه أنه ولد مقضيًا عليه بالفشل وعاش في زمن لا رحمة فيه لمثله، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به ما لا حيلة في دفعه.

أن من الباحثين من يرى أن رجال الفنون في الجماعة الإنسانية كالأ

طفال في الأسرة لا بد لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعى لأنفسهم، لأنهم لا يحسنون حيل السعى ولا يجيدون عملهم إذا تفرغوا لممارسة العيش وإتقان حيله، فإذا التمس هؤلاء الباحثون مثلاً يدعمون به رأيهم فما نخالهم يجدون في تاريخ الآداب مثلاً أصح من شاعر كابن الرومي في زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة.

### طيرته

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها الذي أشرنا إليه في الكلام على مزاج الشاعر، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه، وهي في ابن الرومي خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألوانها غير ألوانها في أكثر المستطيرين، بحيث وجب أن نفردها بالبحث في هذه لالكلمة ببعض التفصيل.

فاصل البواعث التي أصابت ابن الرومي بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء.

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم، لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ولا يحس النفرة بينه وبينها، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها.

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعاً خفيماً يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره، فهو في غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقي الخطر - حين يلقاه - بعدة كاملة ونفس مطمئنة، لا يتسلف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط في الفزع منه متى وقع واستحال عليه

دفعه . وقد تؤدي به هذه الطمأنينة إلى نقيض الطيرة، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهم على السواء، ويستلسم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه، فهو أبداً في حالة سلم وأمان، إذ يكون المتطير أبداً في حالة حرب وارتياب .

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارئ عامة .

أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة في حسه والأشباح والأطياف كثيرة في وهمه، يتخيل ويتوهم، ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم، ثم يزيده الفزع من الأخيلة والأوهام فإن كان إلى ذلك شاعراً وكان خياله قوياً فللطيرة فيه معين لا ينضب من الخلق والابتكار والطوارق .

وتوارد عليه المنبهات - وكل طارق في الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون . كما هو الشأن في كل مستحضر للخطر المتوقع للمفاجأة .

فأنت تسير في الطريق المأمون فلا تزعجك نبأة ولا يلفتك ما قد يوجب التلفت . ولكنك إذا أدلجت في الأجمة المرهوبة واستحلكت الليل حولك إليك أنك تسمع في كل همسة فحيح أفعى وفي كل نفخة همهمة أسد وفي كل خطبة تليك هجمة عدو يتتحك بمكروه، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والأجمة المرهوبة إلا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين .

ولقد كان ابن الرومي أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه: فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور، ويعلم إلا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة - كما يقولون - ويزعم أن الحذر باب الأمان:

فأمن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحذار من الخطوب

ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما  
مر بك في أخباره، ثم لا يشك في أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت  
وصدقت محاذيره أو كذبت. لأن الحجة في العقائد الشعرية تلحق العقيدة  
وللا تسبقها، وتؤكددها إذا وافقتها ولكنها لا تفندها إذا عارضتها.

\*\*\*

ومن روافد الطيرة في ابن الرومي ذوق الجمال وتداعى الخواطر.  
فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتهلل للمناظر الجميلة السوية  
وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائثة. ويصاحب الفرح الإقبال  
والاستبشار والرغبة ويصاحب النفور الحزن والإنكار والتشاؤم والكراهة،  
وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة إذا دق الحس وغلب عليه الحذر  
وأصبح الانقباض عنده نذيراً يثنيه ويقتضب عليه طريق أمله.

أما تداعى الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ما  
تؤدى إليه وتتقلب عليه: ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركباً على التشاؤم  
فليس أسهل من اتجاه خوطره السريعة إلى حيث ألفت طبيعته واستمر مزاجه.  
فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة! ويسير عليه أن يعرف ذلك السر  
ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن ينتقل كومضة البرق بين المعانى  
ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل حروفها وأوزانها،  
فلا يشق عليه أن يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجة ذهنه عند معنى من  
تلك المعمانى ومشاكله من تلك المشاكلات.

وذوق الجمال وتداعى الخواطر كانا في ابن الرومي على أدق وأيقظ ما  
يكونان في إنسان. كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع  
المنهوم الذى لا يشبع. وقد عرفنا أمثلة من ذلك فى دقة تشبيهاته وأحكام  
صوره وغرابة التفاته إلى مواقع للنظر لا يلتفت إليها شاعر غيره. وسنعرف

أضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه في تناول الحس وتصويره .

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشناً القبح ويحسبه ذنباً يعاف ويستر، وكان يباليغ في إخفائه من نفسه إذا ابتلى به كما يباليغ في إخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر، ولا يرى الأحدثب أو الأعور أو الخصى أو الأشقر الذى يحكى لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين عن سوء الخلقة إلا انقبضت نفسه وأسرع إليه ما يلزم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم .

وتداعى الخواطر ملحوظ في جميع شعره لا يستدل منه بغرض دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة، فهو يسلسل المعنى ويشبعه حتى يستنفد، وكلما عن له خاطر لحق به ما يقاربه ومن يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر إلى الوقوف . هذا فى المعانى . أما فى الألفاظ فإنه يغوص فى تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليمن والشؤم ودقائق المدح والذم . . فجعفر عنده تساوى " جاع وفر " والخان يذكره بالخيانة .

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الأرناب ويلعب بتصحيف الكلمات فى السمع والخط أحياناً لينقلها إلى المدح أو الهجاء فيقول فى القيان "

فإن تصحيف اسمها "فتنة"

لا تلح من تفتنه "قينة"

ويقول فيمن اسمه ابن "هرثمة"

ع بمعنى مصحف اسم أبيه

عائد دهره إذا سطع النق

وتصحيف هرثمة هو "هزيمة"

ويجعل عمر "عيراً" بقوله:

يا عمرو لو قبلت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطئ الفقر

أو يفعل ذلك في الاسم الواحد معنًا أشد الإمعان في استخراج  
التصحيف للمدح والذم كما فعل في اسم اسحاق مادحًا وهاجياً فقال وهو  
يمدح:

وأسلم ابا إسحاق لابس غبطة وعداك للأبعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعد جداً في تصحيفه:

يا أبا إسحاق وأقلب نظم اسحاق وصحف

وأترك الحاء على حاء ل فمما للحاء مصرف

يشهد الله لقد أصبح ت عين المتسخف

فتبدل اسم "اسحاق" بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا وإثبات  
حائه على حالها فخرج من هذه العملية الطويلة "فاحشاً" . . وليس بينه  
وبين الأصل صلة كما ترى إلا ما عرض له من التصحيف والتحريف من أبعد  
طريق.

وقد يذهب ذهنه إلى الصورة التي تنقلب إليها الأسماء بعد اللثغ  
المضاعف كما قال في أبي علي بن أبي قره:

أنت عندي وشيخك السيد الما جد لا شك نادقاً الكنيتين

ليس في منطق الفصح ولكن حين يكيماها أخو لثغتين

مببدل لام كل لفظ بياء مبدل قاف كل لفظ بغين

فيصبح على بن أبي قره في لغة الأثلغ وهو عيبى بن أبي غرة بكسر  
العين! ولولا السرعة في تداعى الخواطر وخلق المناسبات لما وصل إلى هذا  
التصحيف في الاسمين.

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة "سكان" حين انحدر العلاء بن صاعد يريد واسطاً فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت مها الأمواج فانكسر السكان فرجع . فقال ابن الرومي :

رأيت منكسر السكان ظاهره هول وتأويله فآل لمنجاكا

لأن لفظة "سكان" إذا قلبت حروفها "ناكس" لاشك في ذاكا

وإن عقلا كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعاني والألفاظ وما يتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يعتدى إلى مكامن الطيرة والشؤم في كل معنى وكل كلمة، ولا سيما إذا رانت على نفسه الخيبة وقدر الفشل في كل خطوة واقترن ذلك بالإحساس المتوفر المتربص الذي لا تضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة في الفطرة.

وتداعى الخواطر بهذه السرعة من الحالات التي تتقارب فيها العبقرية والجنون كما تقدم في الكلام على مزاج الشاعر، فيشب العبقرى في لمحة عين من المعنى إلى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتيئنها الناظر إلا بعد التوضيح والجهد الجهد في التنبه لمداخلها وتعقب أوصالها والجرى معها جرياً يتعبه ولا يسره لأول وهلة. وتسمع المجنون يتكلم فإذا هو يخلط ويأتى بالمفارقات ولكنه في داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات ترب منها ما نأى وتؤلف ما تبعثر، غير أن الجنون عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة. وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذيين المتناقضين أى بين اسمى ما يرتقى إليه الذهن وأوضع ما ينحدر إليه.

وإليك مثلاً هذه الأبيات التي قالها ابن الرومي في هجاء ابن طالب

الكاتب :

أزرق مشثوم أحيمر قاشر لأصحابه، نحس على القوم ثاقب  
وهل أشبه المريخ إلا وفعله لفعل نذير السوء شبه مقارب  
وهل يتمادى الناس فى شئوم كاتب لعينيه لون السيف شبه مقارب  
ويدعى أبوه طالبًا وكفماكم به طيرة أن المنية طالب  
إلا فاهربوا من طالب ابن طالب فمن طالب مثيلهما طار هارب

فهذا المثل نستطيع أن نتبع مداخل الطيرة إلبفس ابن الرومى من جانب  
"ذوق الجمال" ومن جانب "تداعى الخواطر" فى وقت واحد، ونستطيع أن  
نراقب ذهنه وهو يعمل فى حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ  
والمعانى كما نراقب البنية الحية وهى تعمل من وراء المجاهر والكواشف.  
فانظر إلى ألوان الوجه "الأحيمر" القاشر وإلى السوء والبلاء أين هما وماذا  
يجمع بينهما من الصلة والمناسبة؟ لا صلة ولا مناسبة! ولكن ضع بينهما  
المريخ ولونه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما اقترن به فى الأساطير من خصائص  
الحرب والفتنة تتنظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع أطرافها، وقل مثل ذلك  
فى لون العين ولون السيف القاضب! وفى "الطالب" الذى لا يقابله إلا  
"الهارب" وفى "الطلب" الذى يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب! وفرق  
هذا كله فإذا هو أبعد المتفرقات . . واجمعه كما جمعه ابن الرومى فإذا هو  
أقرب المناسبات وألزم العلاقات.

ولقد ضاعف العصر ما فى نفسه من الاستعداد للطيرة من هذه الجوانب  
الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والإغراق فيها. فقد  
كان أصح الأصحاء فى عصره يصدق الطولع ويؤمن بالسعد والنحس  
والتفاؤل والتشاؤم، فزعم ابن الرومى أن الطيرة موجودة فى الطبائع وأنه ما  
من أحد ألا يتفاءل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ العلاقات من ظواهر الزمان  
لخفاياه، ومن قلتات لسانه لما فى دخائل ضميره!

وكثر التصحيف فى زمنه، بل كثر فى بيت من بيوت الرؤساء التى اتصل بها وتردد عليها فى مجالس سمرها ولهوها، وهو بيت بنى طاهر ولاة الحكم فى خراسان والشرطة ببغداد. ومن رءوسه عبد الله بن طاهر الذى قال ملغزاً فى اسم ظريف:

اسم من أهواه اسم حسن      فإذا صحفته فهو حسن  
فإذا أسقطت منه فاءه      كان نعتاً لهواه المختزن  
إلخ .. إلخ ..

ومن رءوسه عبيد الله الذى كان يعرض الشعر على ابن الرومى ويقترح عليه تصحيفه كما ترى فى ديوانه.

فتمكنت عادة التصحيف فى ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها أداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الإشارات الخفية من ظواهر المعانى والألفاظ.

على أننا - مع توافر هذه البتواعث فى مزاجه وعصره - نلاحظ أن الروايات التى ذكرنا عن طيرته لا ترجع واحدة منها إلى ما قبل الخمسين من عمره، فرواية ابن المسيب التى يقول فيها ابن الرومى فزع من رؤية الحول والعمور فى المهرجان ترجع إلى مهرجان سنة ثمان وسبعين، أى حين كان ابن الرومى فى السابعة والخمسين. والنوادر التى حكيت عن الأخفش لا يظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين، لأن الزبيدى يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملئ عليهم هجاء ابن الرومى فيه، ويغلب إلا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين. والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة، فكان ابن الرومى فى الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين.

والرواية التى نقلت عن إبراهيم كاتب مسروق البلخى وحضرها برذعة

الموسوس صاحب سنة تسع وسبعين ومائتين أى حين بلغ ابن الرومى الثامنة والخمسين فيرجع إذن أن الطيرة الشديدة فى ابن الرومى كانت عارضاً من عوارض الشيخوخة، وأنه أفرط فيها بعدما ابتلى من الآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسى والرفيق، وللشيخوخة كافة ميل إلى تصديق الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل فى باب العياقة والزجر على العموم، فابن الرومى فى شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التى ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام.

إلا أننا يجب أن نحسب هنا حساباً للمبالغة التى تدخل على كل شهرة وتغرى الناس باختراع الأقاويل وإضافة النوادير بتلك الصفة وينفرد فيها بالظهور. فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح، وقد يكون الصحيح مشوباً بالمبالغة والإطباب.

### عقيدته

تقدم فى الكلام على الحالة الدينية فى القرن الثالث للهجرة أنه كان عصرًا كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى فى العقائد رأياً يفسر به إسلامه، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة.

فابن الرومى واحد من هؤلاء القراء لا نتظر أن تمر به هذه المباحث التى كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس فى تفسير العقيدة. فكان مسلماً صادق الإسلام ولكنه كان شيعياً معتزلاً قدرياً يقول بالطبيعتين، وهى أسلم النحل التى كانت شائعة فى عهده من حيث الإيمان والدين.

وقد قال المعرى فى رسالة الغفران أن البغداديين "يدعون أنه متشيع ويستشدون على ذلك بقصيدته الجيمية" ثم عقب على ذلك فقال: "ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء".

ولا ندرى لماذا شك المعري في تشيعه لأنه "على مذهب غيره من الشعراء" .. فإن الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقاً كغيرهم من الناس وربما أفرطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين، وإنما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كله ففخيت عنه حقيقة مذهبه، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء.

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في إظهار التشيع الذي لا شك فيه، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوها إلى نظمها من طمع أو مداراة، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بنى طاهر وناحية الخلفاء، فقد رثى بها "يحيى بن عمر بن حسين بن زيد أبي علي" الثائر في وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان، وقال فيها يخاطب بنى العباس ويذكر "ولاة السوء" من أبناء طاهر:

أجنو بنى العباس من شنآنكم	وأوكر على ما فى العياب وأشرجوا <sup>(١)</sup>
وخلوا ولاة السوء منكم وغيبهم	فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع	إلى أهله يوماً، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عذرى لمعتذر بكم	ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم	وبينهم، أن اللواقح تنتج
غررتهم، لئن صدقتهم أن حالة	تدوم لكم، والدهر لونان أخرج
لعل لهم فى منظوى الغيب ثائراً	سيسمو لكم، والصبح فى الليل مولج

فماذا يقول الشيعى لبنى العباس أقسى وأصرح فى التبرص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام؟ فقد أنذر بنى العباس بزوال الملك وكاد يتمنى - أو تمنى - لبنى على يوماً يهزمون فيه أعدائهم ويرجعون فيه حقهم

(١) وكى القرية ربطها وأشرجها ضمها والمقصود: أخفوا يا بنى العباس ما فى صدوركم من بغض العلويين.

ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل بهم . وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعى فى هذا المقام . على أنه كان أظهر من هذا فى النونية التى تمنى فيها هلاك أعدائهم ولام نفسه على التقصير فى بذل دمه لنصرتهم .

أن يوالى الدهر أعداء لكم  
خلعوا فيه عذارى المعتدى  
فأصبروا يهلكهم الله لكم  
فلهم فيه كمين قد كمن  
وغدوا بين اعتراض وأون<sup>(١)</sup>  
مثل ما أهلك أذواء اليمن  
.....

قرب النصر فلا تستبطئوا  
ومن التقصير صونى مهجتى  
لا دمی یسففك فى نصرتكم  
قرب النصر يقينا غير ظن  
فعل من أضحى إلى الدنيا ركن  
لا ولا عرضى فيكم يمتهن  
غير أنى باذل نفسى وأن  
ليت أنى غرض من دونكم  
ألقى بجبى من رمى  
أن مبتاع الرضى من ربه  
قرب النصر يقينا غير ظن  
فعل من أضحى إلى الدنيا ركن  
لا ولا عرضى فيكم يمتهن  
حقن الله دمی فیما حقن  
ذاك، أو درع یقیکم ومجن  
وينحرى وبصدرى من طعن  
فيكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك فى تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور، فإنه يعرض نفسه للموت فى غير طائل حباً لبني على وغضباً لهم وإشهاراً لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر إلا بلقب الشهيد كما ذكره فى القصيدة الجيمية وفى خاطرة أخرى مفردة نظمها فى هذين البيتين:

كسسته القنا حلة من دم  
جرته معانقة الدارع  
فأضححت لدى الله من أرجوان  
بين معاملة القاصرات الحسان

(١) الأرن النشاط وإظهار القوة.

وبعض هذا يكفى فى الدلالة على تشيعة للطالبيين واتخاذة التشيع مذهباً فى الخلافة كمذهب الشعراء، أو غير الشعراء . . ولا سيما التشيع المعتدل الذى يقول أهله بجواز أمانة المفضول مع وجود الأفضل ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا علياً فى الخلافة، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا فى جند يحيى بن عمر لقتال بنى العباس. فهم لا يقولون فى نصرة آل على أشد مما قال ابن الرومى ولا يتمنون لهم أكثر مما تمنى.

ويلوح لنا أن الرومى ورث التشيع وراثته أقرب إلى مذهب قومها الفرس فى نصرة العلويين، ولأن أباه سماه علياً وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التى يجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء، ولا حرج على أبى الشاعر أن يتشيع وهو فى خدمة بيت من بيوت العباسيين، لأن مواليه كانوا أناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين لاعباسيين والعلويين، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاية العهد أنفسهم أنهم كانوا يكرمون علياً وأبناءه كما كان مشهوراً عن "المعتضد" الخليفة الذى أكثر ابن الرومى من مدحه، وكما كان مشهوراً عن "المتنصر" ولى العهد الذى قيل أنه قتل أباه "المتوكل" جريرة ملاحاة وقعت بينهما فى الذب عن حرمة على وآله.

ومع هذا لم يخطئ المعرى حين ظن أن للشعراء تشيعاً غير تشيع الدين والعصبية، إذ كان الشعراء فى كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التى تميش لها القلوب من حولهم، وكانت العاطفة أبداً مع بنى على حيث كانت المصلحة أبداً مع بنى العباس. وقد برز هذا الفارق فى مقتل يحيى بن عمر خاصة لأنه كان محبوباً معطوفاً عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله، وكان معذوراً فى خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وأترب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه، ويقول: "إن عشنا أكلنا" . . وفى ذلك يقول ابن الرومى من القصيدة الجيمية:

فى الحق أن يمساو خماصًا؁ وأنتم يكاد أخوكم بكنه يتبسعج  
 وتمشون مختالين فى حجراتكم ثقال الخطى أتغالكم تترجرج  
 وليدهم بادى الضوى؁ ووليدكم من الريف ريان العظام خولج  
 وقد بلغ من حبه فى قلوب الناس أنه لما قتل التمس قتلته أحدًا يعالج  
 رأسه كما تعالج رءوس القتلى لتحفظ وتنصب فأعياهم أن يجدوه؁ وطال  
 بعثهم عنه حتى عشروا برجل من أراذل السوقه رضى أن يصنع بالرأس ما لم  
 يرضه الآخرون. ثم أرادوا نصبه فى بغداد؁ فهاج أهلها وماجوا وخيفت الفتنة  
 فأنزلوه ولما يكد يرفع؁ ولم يعرف فى تاريخ الطالبين أحد حزن الناس لموته؁  
 واضطربوا كحزנם واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر. ففى غضب ابن الرومى  
 شىء كثير من غضب الشاعرية أو من غضب السليقة الحساسة التى لا يسعها  
 أن تهدأ وتفتر والقلوب حولها جائشة والصدور مكظوظة والطباع نافرة. ولا  
 تنسى أنه رثى يحيى وهو دون الثلاثين فى سن للعاطفة عليها سلطان عظيم  
 وللحزم عليها سلطان ضعيف. ولكن أتراه - لولا العقيدة - كان يكرر هذا  
 الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر؟ أكان يجازف بحياته ويقول فى النونية  
 أشد مما قال فى الجيمية التى هيح لها هذا الهياج وساوره فيها الحزن كما ساور  
 ألوف المحزونين؟

\*\*\*

وبعد فيجب أن نذكر فى هذا السياق أن ابن الرومى رثى محمد بن عبد  
 الله بن طاهر الذى تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهئة بقتله. ففى هذه  
 الملاحظة ما يجوز أن يلقى الشبهة على جده فى التشيع ولدده فى الخصومة  
 للمذهب. فإذا أردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه أمورًا كثيرة تصحح  
 تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة. وهى: أن ابن الرومى لم يكن قط لدودًا فى  
 خصومه ولا صارمًا فى عصبية؁ وأن محمد بن عبد الله طاهر مات بعد مقتل

ليحى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب، وأن أبناء طاهر كانوا حماة لابن الرومي يمدحهم ويرثيهم ويختلف إلى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين أقطابهم. فأولى أن نذكر هنا أنه نسي ذلك كله وهجاهم وثار عليهم في سورة الحزن فرماهم بما نسميه الآن "الخيانة العظمى" واتهمهم بالكيد لبنى على وبني العباس على السواء وأنهم يأترون بالدولة العربية الإسلامية ليقوموا على أنقاضها دولة الفرس القديمة؟ فقال لهم في القصيدة الجيمية أنكم لو أمكنتمكم في الفريقين فرصة . .

إذن لا استفدتم منهما وتر فارس وإن ولياكم، فالوشائج أوشج

أبى أن تحبوهم يد الدهر ذكركم ليالى لا ينفك منكم متوج

وأنى على الإسلام منكم لخائف يوافق شتى بابها الآن مرتج

وتلك سورة متشيع ناغم لا ييالى ما يقول وقد ملكه الحزن ونسى

العواقب وراح يخطب فى تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس فى تلك الأيام.

ويصح أن نذكر بعد ما تقدم أن الطاهريين كانوا فى بواطنهم متشيعين

يضطرون اضطراراً إلى حرب بنى على وقبول التهئة بموتهم كما كان الطالبيون

أنفسهم يضطرون إلى شهود محافل التهئة وهم مطويون على الحزن الأليم

والثار المقيم. ويقول ابن الأثير أن سليمان بن عبد الله بن طاهر انهزم اختياراً

فى حرب الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بعد مقتل يحيى بن عمر "لأن

الطاهرية كلها كانت تشيع". فلما أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان تأثم

سليمان من قتاله لشدته فى التشيع وقال:

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حيناً تريدنا لتحسينا الأمرينا

يا قوم إن كانت الأنباء صادقة فالويل لى وجمع الطاهرينا

أما أنا فإذا اصطفت كتائبنا أكون من بينهم رأس المولينا

بالعذر عنه رسول الله منبسط إذا احتسبت دماء الفاطمينا

وتشيع الظاهريين معقول مرجح لأنهم كانوا فرساً يوافق هواهم هذا المذهب، ويصلح عندهم ذريعة لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية. فثناء الشاعر رجلا من الشيعة - على هذا الاحتمال - أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق الميل والجد في العقيدة.

وإن أحق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجربته إذا خاف، وتبسط له العذر والعزاء إذا سخط من صروف الحوادث، وتمهد له الأمل في مقبل خير من الحاضر وأدنى منه إلى كشف الظلمات ورد الحقوق، وكل أولئك كان ابن الرومي واجده على أوفاه في التشيع للعلويين أصحاب الأمامة المنتظرة في عالم الغيب على العباسيين أصحاب الحاضر المقنوت المتمنى زواله، فلهذا كان متشيعاً في الهوى متشيعاً في الرجاء متشيعاً في الرأي الذي وافق الهوى والرجاء، وكان "على مذهب غيره من الشعراء" وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين.

\*\*\*

أما الاعتزال فابن الرومي لا يكتمه ولا يمارى فيه، بل يظهره إظهار معتز به حريص عليه، فمن قوله في ابن حريث:

معتزلى مسر كفر ييدى ظهوراً لها بطون  
أرفض الاعتزال رأياً كـلا! لأنى به ضنين  
لو صح عندى له اعتقاد ما دنت ربي بما يدين

يقول: إن ابن حريث هذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الإيمان الصحيح في رأى المعتزلة، ثم يقول: أترانى إذن أرفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه؟ فيجيب نفسه: كلا! لأنى أضن به، وأعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال، ولولا علمى بذلك ما دنت ربي بما يدين . .

وكان مذهبه فى الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار  
ونيزهون الله عن عقاب المجر على ما يفعل: وذلك واضح من قوله يخاطب  
العباس بن القاشى ويناشده صلة المذهب:

إن لا يكن بيننا قريى قاصرة  
للدين يقطع فيها الوالد الولدا  
مقالة "العدل والتوحيد" تجمعنا  
دون المضاهين من ثنى ومن جحدا  
وبين مستطرفى غى مرافقة  
ترعى، فكيف اللذان استطر فأرشدا  
كن عند أخلاقك الزهر التى جعلت  
عليك موقوفه مقصورة أبداً  
ما عذر "معتزلى" موسر منعت  
كفاه معتزلياً مقترراً صفدا  
أيزعم القدر المحتوم ثبطه؟  
أن قال ذاك فقد حل الذى عقدا  
أم ليس مستاهلا جدواه صاحبه؟  
أنى: وما جار عن قصد ولا عندا  
أم ليس يمكنه ما يرضيه له؟  
يكفى أخا من أخ ميسور وجدا  
لا غدر فيما يرينى الرأى أعلمه  
للمرء مثلك إلا يأتى السددا

فواضح من كلامه هذا أنه "معتزلى" وأنه من أهل "العدل والتوحيد"  
وهو الاسم الذى تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل إلى الله فلا يقولون  
بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسبق إليه، ولا، هم يوحدون الله فيقولون أن  
القرآن من خلقه وليس قديماً مضاهياً له فى صفتى الوجود والقدم. وقد  
اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم "القدرية" ورووا  
فيهم الحديث "القدرية مجوس هذه الأمة" فهم يقولون ما نحن بالقدرية لأن  
الذين يعتقدون القدر أولى بأن ينسبوا إليه. إنما نحن من أهل العدل والتوحيد  
لأننا ننزه الله من الظلم وعن الشريك.

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الإنسان فيما يأتى من خير  
وشر ويحتج على زمليه بهذه الحجة فيقول له لم لا تثنينى؟ إن قلت إن القدر  
يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من اختيار الإنسان فى أفعاله.

وإن قلت أنك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمرءة.

وله عدا هذا أبيات صريحة في اعتقاد "الاختيار" وخلق الإنسان لأفعاله

كقوله:

لولا صرف الاختيار لا عنقوا لهوى، كما اتسقت جمال قطار

وقوله:

أنى يكون كذا وأنت مخير متصرف فى النقض والأمرار

وقوله:

الخير مصنوع بصانعه فمتى صنعت الخير اعقبكا

والشر مفعول بفاعله فمتى فعلت الشر أعطبكا

إلا أنه كان يقول بالقدر فى تقسيم الأرزاق وأن:

الرزق آت بلا مطالبـة سيان مدفوعه ومجتذبه

ويقول:

أما رأيت الفجاج واسعة والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية فى هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب

عليه الإنسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة. ومن العزاء لابن

الرومى أن يكون الرزق مضموناً مقدرًا لأنه أمان له من مخاوف الغد المجهول

وراحة من اللقاء التبعة على نفسه فيما أصابه من الخذلان والتخلف.

أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون فى قوله:

فينا وفيك طبيعة أرضية تهوى بنا أبدأ لشر قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه من جنة الفردوس أفضل دار

فتعوضنا الدنيا الدنية كاسمها من تلكم الجنات والأنهار

يئست لعمر الله تلك طبيعة  
واستأثرت ضعفى بنيه بعده  
لكنها مأسورة مقسورة  
فجسومهم من أجلها تهوى بهم  
لولا منازعة الجسوم نفوسهم  
أو قصروا فتشاولوا بأكفهم  
حرمت أبانا قرب أكرم جار  
فهموا بها أسرى بغير أسار  
مقهورة السلطان فى الأحرار  
ونفوسهم تسمو سمو النار  
نفذوا بسورتها من الأقطار<sup>(١)</sup>  
قمر السماء وكل نجم سار

وكان الفارسية هنا تسربت إلى أقوال المعتزلة كما تسربت إلى كثير من أفكار الثقافة العربية، فإن القول بالطبيين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل أديان بنى إسرائيل وقبل النصرانية والإسلام. فلما جاء التوحيد الإسلامى أبطل الثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام، فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيين على أن يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر فى تديير الوجود.

والى هنا تكلمنا من مذهبه ولم نتكلم عن "فطرته الدينية" أو عن قوة الإيمان فى نفسه.

والفرق بين الأمرين لا يحتاج إلى شرح طويل. فإن الناس قد يختلفون فى المذهب أبعد اختلاف ويتفقون فى "الفطرة الدينية" أقرب اتفاق، فربما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب فى فجاج الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب "فطرة دينية واحدة" مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة، يتفقون فى هذه الفطرة، ويخرج كل منهم إلى معبده فإذا واحد منهم ذاهب إلى المسجد والثانى إلى الكنيسة والثالث إلى البيعة والرابع إلى بيت الأصنام، أو يتفقون على هذه الفطرة، ويخرج كل منهم إلى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التى يقاتله بها أولئك الآخرون.

(١) أقطار السموات.

فالفطرة الدينية توجد في أنصار كل مذهب وملة، أما المذاهب والملل فلا نهاية لها في التعدد والافتراق.

وابن الرومي كان مفطوراً على التدين، لأنه كان مفطوراً على التهيب والاعتماد على نصير، وهما منفذان خفيان من منافذ الإيمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود. ومن ثم كان مؤمناً بالله خوفاً من الشك، مقبلاً على التسليم بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة إلى شيء من الأشياء، وبلغ من يساطته أنه كان ينكر على الحكماء شكهم في حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت وحسابه من فعل الدواء والخنوط، فقال لابن أبي ناظرة حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء.

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا      بعد التقادم منهم بدواء  
بينت عن رعة وسدق أمانة      لولا اتهامك خالق الأشياء  
أحسبت أن الله ليس بقادر      أن يجعل الأموات كالأحياء  
وظننت ما شاهدت من آياته      بلطفة من حيلة الحكماء  
ومات وهو يقول في ساعاته الأخيرة:

إلا أن لقاء الله      هو دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده إلا شعبه من ذلك "التهيب" الديني الغريزي فيه. فهو يتفلسف ويرى الآراء في الدين ولكن في حدود من الشعور لا في حدود من التفكير، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف.

وليس من "الاجتراء" أنه قال بالاختيار، ورأى له في الدين رأياً غير ما اصطلاح عليه السواد. فإنه كان يحيل الذنب على الإنسان وينفي الظلم عن القدر في العقاب والثواب ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله إلهه، فكأنما جاءه هذا الرأي من محابة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه، وإنما دفع به إلى رأى المعتزلة مخاوف الشكوك التي كانت تخامرهم فلا يستريح

حتى يسكن فيها إلى قرار وينتهى من التفكير فيها إلى بر الأمان، ولذلك كان يأوى إلى الأصدقاء يكشفهم بما فى صدره ويستعين بهم على تفريغ غمته .

ويدمج أسباب المودة بيننا      مودتنا الأبرار من آل هاشم  
وإخلاصنا التوحيد لله وحده      وتذيبنا عن دينه فى المقام  
بمعرفة لا يقصر الشك بابها      ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم  
وأعمالنا التفكير فى كل شبهة      بها حجة تعبى دهاة التراجم  
بيت كلانا فى رضا الله ما حضا      لحجته صدراً كثير الهمام  
بيد أن "الإيمان" شىء وأداء الفرائض الدينية شىء آخر، فقصارى  
الإيمان عنده أنه يؤمنه بقرب آل البيت وتنزيه ربه والاطمئنان إلى عدله  
ورحمته، ثم يدع له سبيله يلعب ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح، ولا أهلا  
بالصيام إذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب:

فلا أهلا يمانع كل خطير      وأهلا بالطعام والشراب

بل لا حرج عليه إذا قضى ليلة فى السرور أن يشبهها بليلة المعراج:

رفعتنا السمود فيها الفو      ذ فكانت كلية المعراج

ذلكل أنه كان فى تقواه طوع الإحساس الحاضر كما كان فى كل حالة  
من حالاته. يلعب فلا يبالي أن يتماجن حيث لا يليق مجون. ويستحضر  
التقوى والخشوع فلا يياره أحد من المتعبدين، ويخيل إليك أنك تستمع إلى  
متعبد عاش عمره فى الصوامع حين تستمع إليه يقول:

تجافى جنوبهم      عن وطئ المضاجع

كلهم بين خائف      مستجير وطامع

تركسوا لذة الكرى      للعيون الهواجع

ورعوا أنجم الدجى	طالعاً بعد طالع
لو تراهم إذا هم	خطروا بالأصابع
وإذا هم تأوهوا	عند مر القوارع
وإذا باشروا الثرى	بالخدود الضوارع
واستهلت عيونهم	فائضات المدافع
ودعوا: "يا مليكنا	يا جميل الصنائع"
أعف عنا ذنوبنا	للوجوء الخواشع
أعف عنا ذنوبنا	للعيون الدوامع
أنت إن لم يكن لنا	شافع، خير شافع"
فأجيبوا إجابة	لم تقع فى المسامع
"ليس ما تصنعونه	أوليائى بضائع"
"ابدلوا لى نفوسكم	أنهـا فى ودائع

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محبى الدين .

### هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجائيين هما أشهر الهجائيين فى أدب العصور الإسلامية عامة، أحدهما ابن الرومى والآخر دعبل الخزاعى هاجبى الخلفاء والأمراء وهاجبى الناس جميعاً والقائل:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

وقد جمع المعرى بينهما فى بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر

لبنه فقال:

لو أنصف الدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يصف اسماً جديداً إلى هذين الاسمين، فإن العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما فى قوة الهجاء والنفاز فى هذه الصناعة، وكلاهما مع هذا نوع فذ فى الهجاء يظهر متى قرن بالآخر . . فدعبل كما قلنا فى غير هذا الكتاب:

"كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التى تخرج على "المجتمع" وتثور به ولا تزال فى حرب معه لا مسألة فيها ولا مهادنة إلى أن يواربها الموت فى ثراه، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على إجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم، وهو إنما يهجو الناس جميعاً فى أشخاص أولئك الأفراد . . وكان يهيم على رأسه فى البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثارهم ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه فى اللهو والقصف، ثم ينقلب إلى شأنه من الأباق والتطواف فى أرجاء الأرض، وربما لقى الشرارة وقطاع الطريق فى بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغتينا لهم ويعرفهم فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم سوء، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والذساتير. فهو قاطع طريق بفطرته التى ولد عليها وإن لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة، بل لقد قيل أنه قطع الطريق فى بعض أيامه فعلا "وإنه كان يكمن للناس بالليل فرصد يوماً صيرفياً طمعاً بما معه ففتك به ولم يجد فى كفه إلا ثلاث رمانات فى خرقة فخرج هارباً من الكوفة لاشتداد الطلب عليه" وما كان هجوه لو بحثت فى أسبابه إلا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهاه فى أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف، لا طمعاً فى المال أو طلباً للتراث. فما اتفق الناس على إمام إلا هجاه وألح فى هجائه وأن أحسن إليه وأجزل له العطاء، ولا ترك أميراً ولا وزيراً ولا والياً إلا ناله بلسانه عرضاً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه."

" . . . أما ابن الرومى فلم يكن مطبوعاً على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على "المجتمع" فى عالم الأدب، ولكنه كان "فناناً" بارعاً أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال، فإذا قصد شخصاً أو شيئاً بهجاء صوب إليه "مصورته" الواعية فإذا ذلك الشخص أو ذلك الشئ صورة مهياة فى الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الأشكال فى المرايا المعقوفة والمحدبة، فكل هجوه تصوير مستحضر لأشكاله أو لعب بالمعانى على حساب من يستشيره".

هذا هو الفرق بين مذهبي هذين الشاعرين اللذين ظهرا فى قرن واحد وأخذوا بطرفى الهجاء فى الآداب العربية.

ولك أن تقول من جهة أخرى أن الفرق بينهما كان فرقاً بين المذهب البدوى والمذهب الحضرى فى الهجاء. فقد كان دعبل بدوياً نافرأ بفطرته وكان ابن الرومى حضرياً أنيساً فطرته، فإذا تبرم ابن الرومى بالناس فإنما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس إليهم ويعانى ما يعانى من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكاك منهم. فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة، كما كن السخط فى نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق.

ولهذا الفرق أثره فى موضوع المثالب التى يلقيها كل منهما على مهجويه، فدعبل يسلب المهجو جميع الفضائل التى تعتر بها النفس الصارمة البدوية، يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النخيزة. ويجعله رجلاً يسمع البدوى صفاته فيقول أنه حثير مردول.

وابن الرومى يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التى يجمعها التبذل والتهالك على اللذات، فإذا حذف من

هجومه كل ما أوجبه الحضارة والخلاعة الفاشسة في تلك الحضارة فقد حذفت  
منه شر ما فيه ولم يبق منه إلا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير .  
والبدوى يخاف الدم والحضرى قلما يخافه .

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال الرومى فى بعض مهجويه . فالأفحاش وليد الحضارة والغلو فى  
الأفحاش وليد التهتك فى الحضارة ، ومتى غلا الشاعر فى القذف بأدناس  
التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان أحدهما ، لا شك ، عيب البيئة التى  
أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الدم بها ذمًا هينًا على الأسماع فلا بد فيه  
للشاعر من المبالغة والإغراق .

والثانى تبحث عنه فى قائل الهجوم ومدمنه ، فإنه لولا عيب فيه لما اضطر  
إلى الهجاء ولا آدمته وأفرط فيه .

فما هو عيب ابن الرومى - أو ما هى عيوبه - التياولعته بالهجاء  
والأفحاش وصيرته عنوانًا لزمانه فى السفاهة والبذاء؟ يبدو لنا أن عيبه الأول  
هو الشهوانية والتهالك على اللذات . فالشهوانية هى التى هونت عليه الأقداع  
وسوغت له حوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها  
الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذى تبدأ منه وترجع إليه جميع عيوبه .

ففى هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارئ جدًّا فى كثير من الأحيان ،  
ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبيث والرداءة ، وقل فيه وفى  
هجائه ما شئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل ما هو أهله  
وأقبلت ترد هجاءه إلى بواعثه لم تجد ثمة شرًّا دخيلا ولم يخطئ قط أن تجد  
الخرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متألم يدفع الألم عن  
نفسه وليس برجل السوء الذى يعنيه أن يوقع الألم بغيره ويعتد بإلام الناس  
غرضًا له مقصودًا لذاته .

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم عن غيره حالاً فيه وأكثر عذراً من غير المشهورين به. أسلم من البحترى مثلاً كما قال المرزبانى فى الموشح:

"وكثير من أهل الآداب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومى ويطعن عليه بكثرة هجاءه حتى جعلوه فى ذلك أوحد لا نظير له. ويضربون عن إضافة البحترى إليه وإلحاقه به مع إحسان ابن الرومى فى إساءته وقصور البحترى عن مداه، وأنه لم يبلغه فى دقة معانيه. لأن البحترى قد هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحه، منهم خليفتان: وهما المنتصر والمستعين، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوازهم، وحاله فى ذلك تنبؤ عن سوء العهد وخبث الطريقة. ومما قبح فيه أيضاً وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أنى وجدته قد نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحه أولاً، مع سعة ذرعه بقوله الشعر واقتداره على التوسع فيه.

"وقال أحمد بن أبى طاهر: ما رأيت أقل وفاء من البحترى ولا أسقط، رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصب مدحاً له فيه فحلف ليجلسن. ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه. ثم واصل له مديحاً إليه وأخذ له منه مالا فدفعه إليه، ثم نكب المستعين أحمد بن الخصب بعد فعله هذا بشهور فلعهدى قائماً ينشده:

لابن الخصب الويل كيف انبرى      بإفكه المردى وإبطاله  
يا ناصر الدين انتصر موشكاً      من كائد الدين ومفتاله  
فهو حلال الدم والمال أن      نظرت فى ظاهر أحواله

ثم قال ابن أبى طاهر: كان ابن العلجة فقيهاً يفتى الخلفاء فى قتل الناس. نزحه الله. ثم ختم القصيدة بقوله:

"والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله"

فالبحترى كان فى غنى عن هذا ومدوحة واسعة، ولكنك قل أن تقرأ لابن الرومى هجاء تقول أنه كان من الوجهة النفسية فى غنى عنه.

على أن لصاحبنا فتاً واحداً من الهجاء لا ترتاب فى أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النعمة إليه، ونعنى به فن التصوير الهزلى والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشابهات الدقيقة فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما يراه وأعطاه التصوير حقه من الإلتقان والاختراع، وما نراه كان يقلع عنه فى شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته . . لكن هذا الفن أدخل فى التصوير منه فى الهجاء، وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تطلب وليس بخلة تنبذ. وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذى تهذبه وتهديه ماهراً فيه خيراً بمغامره وخوافيه، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم، ويهين المهين، ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء لأنك إذا منعت أن يفتن إلى الصور الهزلية وأن يفتن فى إدراك معانيها وتمثيل مشابهاتها منعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ما تقع عليه، أما إذا منعت الهجاء وبواعثه فإنك تمنع خلقاً يستغنى عنه وهيلاً لا بد له من التقويم . .

ذلك هو فن ابن الرومى الذى لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار، فأما ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوق فيه لا سائق ومدافع لا مهاجم ومستثار عن عند فى بعض الأحيان لا مستثير. وإنك لتقرأ له قوله:

ما استب قط اثنان إلا غلباً شرهما نفساً وأماً وأباً

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومى هجاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيضة. لكن الواقع هو هذا، والواقع كذلك أنه كان يسكن إلى رشده أحياناً فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى ولو كان مهجواً معدواً عليه، ويتعزم التوبة عن الهجاء مقسماً:

أليت لا أهجـ و طوا      ل الدهر إلا من هجائي  
 لا، بل سأطرح الهجـا      ء وإن رماني من رماني  
 آمن الخـ لائق كلهم      فليأخذوا مني أمانى  
 حلمى أمـز على من      غضبى إذا غضبى عراني  
 أولى بجهلى بعد ما      مكنت حلمى من عنانى

وهذا أشبه بابن الرومى لأنه فى صميمه خلق مسالماً سهلاً ولم يخلق شريراً مطويماً على الشكس والعداوة. بل هو لو كان شريراً لما اضطر إلى كل هذا الهجاء، أو هو لو كان أكثر شراً لكان أقل هجاء، لأنه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله. وما كان الهجاء عنده كما قلنا إلا سلاح دفاع لا سلاح هجوم: وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكايه وما شابهها من ضروب الشر المستقر فى الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذى لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه. وكثير من الأشرار الذين يقتلون ويعتدون على الأرض يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذم فى إنسان، وكثير من الناس يذمون ويستخطون وهم مطبوعون على الخير ولا عطف وحسن المودة، بل هم قد يذمون ويستخطون لأنهم على ذلك مطبوعون.

ومن مقراً مراثى ابن الرومى فى أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثى رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والأنس بالأصدقاء والإخوان. فمراثيه هى التى تدل عليه حق الدلالة المنصفه وليست مدائح التى كان يملئها الطمع والرغبة أو أهاجيه التى كان يملئها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس. ففى هذه المراثى تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات، ونرى فيها الولد البار والأخ الشقيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرؤوم والصديق المحزون. ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريراً مغلق الفؤاد مطبوعاً على الكيد والإيذاء.

وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدق كلامه هو في أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه، لأنهم كانوا يستيحيون إيذاءه ويستهلون الكذب عليه لغرابة أطواره وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والأعاجيب، في حين أنه كان يتحاشى عن تلك التهم ويغفر الإساءة بعد الإساءة مخافة من كثرة الشكاية وعلمًا منه بقلة الإنصاف:

أتانى مقال من أخ فاغتفرته وإن كان فيما دونه وجه معتب  
وذكرت نفسى منه عند امتغاضها محاسن تعفو الذنب عن كل ذنب  
ومثلنى رأى الحسنى بعين جلية وأغضى عن العوراء غير مؤنب  
فيا هاربًا من سخطنا متصلا هربت إلى أنجى مفر ومهرب  
فعذرک مبسوط لدينا مقدم وودك مقبول بأهل ومرحب  
ولو بلغتنى عنك أذنى أقمتها لدى مقام الكاشح المتكذب  
ولست بتقليب اللسان مصارمًا خليلى، إذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريراً ولا ردىء النفس ولا سريعاً إلى النقمة، فلماذا إذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه فى أعراض مهجويه؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة خالياً من الكيد والمراوغة والديسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش فى مثل عصره. فكان مستغرماً فى فنه بحسب أن الشعراء والعلم والثقافة وحدها كفيلا بنجاحه وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة، لأنه كان فى زمن يتولى فيه الوزراء والأدباء والكتاب والرواة ويجمعون فى مناصبهم ألوف الألوفا ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء، وقد كان هو شاعراً كاتباً وكان خطيباً واسع الرواية مشاركاً فى المنطق والفلك واللغة وكل ما تدور عليه ثقافة زمانه، أو كما قال المسعودى كان الشعر أقل أدواته . . وكان الشعر وحده كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال، فماذا بعد أن

يعرف الناس أنه شاعر وأنه كاتب وأنه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم إلا أن تجيئه الوزارة ساعية غليه تخطب وده كما جاءت إلى أناس كثيرين لا يعلمون علمه ولا يبلغون فى البلاغة مكانه؟! ألم يصل ابن الزيات إلى الوزارة بكلمة واحدة فسرهما للمعتصم وفصل له تفسيرها وهى كلمة "الكلاء" التى يعرفها عامة الأدباء؟ بلى! وابن الرومى كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه. فما أولاه إذن بالوزارة وما أظلم الدنيا إن هى ضننت عليه بحقه من المناصب والثراء!!

فإذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين؟ فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن؟ وهل تقصير من الزمان ألم من هذا التقصير؟

ونبوءة أبيه ورجاؤه فى مستقبله وقوله له "أنت للشرف" أيزهد عذا كله هباء لا يقبض منه اليدين على شىء؟ تلك النبوءات التى تنطبع على أفئدة الصغار بمثل النار ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا تزخرها وتوشئها وتعمق فى الضمير أغوارها أياتى الشباب وهى محو لغو مظموس لا يبين أو لا يبين منه إلا ما نيقلب إلى الأضداد وترجمه الأيام بالسقم والفقر والكساد؟ وكيف يمضى إلا وقد محى القلب الذى طبعت فيه؟ وكيف ينعكس معناه إلا وقد انعكس فى القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل إلا على من يلهو به وهو بعيد.

وهكذا كان ابن الرومى يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم:

مالى أسل من القراب وأغمد لم لا أجرد والسيوف تجرد

لم لا أجرب فى الضرائب مرة؟ يا للرجال! وأنى لمهند...!

ولا يدرى كيف يجيب نفسه على سؤاله، لأنه لم يكن يدرى أن فضائله

كلها لا تساوى فتىلاً بغير الخيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الخيلة

وحدها قد تغنى عن فضائله جميعاً ولو كان صاحبهما لا ينظم شعراً ولا ينظر  
فى كتب الفلسفة والرواية والنجوم . .

حسن! إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد بأس مضيض يسهل علينا  
هنا أن نسطره فى كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشفى بمحتته  
فى كل ساعة من ساعات حياته، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقتنع بالثبوتة  
من الوزراء والولاة والعمال إن كانوا يثبون المادحين. فهل تراهم يفعلون؟

لا! لأن الحيلة لازمة فى استدرار الجوائز والمثوبات لزومها فى كل  
غرض من أغراض المعاش، ولا سيما فى ذلك الزمان الذى شاعت فيه الفتن  
والسعايات، وما كانت تنقضى منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودى بحياة  
خليفة أو أمير أو وزير. وربما كانت مصانعه الحجاب والتماس مواقع الهوى  
من نفوس اللعاشية والندمان واللعب بمغامز النفوس الخفية وإضحاك هؤلاء  
وهؤلاء أجدى على المشاعر فى هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه،  
وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر إلا ليستصلحه كما كانوا يقولون فى لغة ذلك  
الزمان، أى ليتخذه نصيراً له عسى أن ينفعه يوماً فى مجالس الخلفاء والأمراء  
بكلمة يقضى بها مأرباً أو يكتب عدواً أو بحيلة يقرب بها بعيداً أو يبعد قريباً.  
وأين يذهب ابن الرومى فى هذا المجال؟ وماذا يرجو المدوحون من تقريره  
وهو رجل كما كانوا يقولون ممرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه أطول  
من صبره؟ لقد كان صاحبنا صفرًا من هذه البضاعة فلا جرم نراه يشكو تكبر  
الحجاب ودسائس الندماء والأصحاب ويعطى القليل حين يجزل عطاء  
الآخرين أو يثاب مرة ويحرم مرات، فقد بلغ من وكس حاله فى هذا أنه كان  
يستجدى الكساء فيمطلونه ويعود إلى الاستجداء فيعودون إلى المظل حتى  
يقول:

جعلت فداك لم أسأ      لك ذاك الثواب للكفن  
سألتك لا لبسه      ورحى بعد فى البدن

وبلغ من وكس حاله أن المدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فإذا  
ألح في طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين  
قال فيه:

رددت على مدحى بعد مطل      وقد دنست ملبسه الجديداً؟  
وقلت أمدح به من شئت غيرى!      ومن ذا يقبل المدح الرديداً؟  
ولا سيما وقد أعقبت فيه      مخازيك اللواتى لن تبيدا  
وما للحي فى أكفان ميت      لبوس بعد ما ملئت صديدا

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أو ستاً ليحصل على جائزتها  
فلا يحصل بعد الجهد على شىء، ويعجب لذلك ويأخذه الشك فى شعره  
فيقول:

عجبت لقوم يقبلون مدائحي      وينسون تثويبي، وفى ذاك معجب  
أشعري سفساف؟ فلم يجتبهونه؟      وأن لا تكن هذى فلم لا أثوب  
ولعله كان يتهم شعره أحياناً فيقول:

الشعر كالعيش فيه      مع الشبيهه شيب  
فليصفح الناس عنه      فطعنهم فسيه غيب  
أو يعتذر بالفاقة من السخف:

لا تلحنى فى المنطق السخيف      فإنى فى حالة اللهيف  
وأحوج الناس إلى رغيف

أو يقول:

قولا لمن عاب شعر مادحه      أما ترى كيف ركب الشجر؟  
ركب فيه اللحاء والخشب ألياً      بس والشوك بينه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما يخد لى رب الأرباب لا البشر  
ثم يعود إلى اعتداده بكلامه فيلقى الذنب على الناس لجهلهم بمعانى  
الكلام:

ما خمدت نارى ولكنهاها ألفت قلوبنا نارها خامدة  
أو يقول:

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة  
وما أنا المنطق البهائم والطير سليمان قاهر المردة  
أو يقول أنهم بهائم لا يفهمون إلا البهائم:

بحقهم أن باعدونى وقربوا سواى وتقريب المباعد أوجب  
خفافيش أعشاها نهار بضونه ولازمها قطع من الليل غيب  
بهائم لا تصغى إلى شدو معبد وأما على جافى الغنائى فتطرب  
ويخطر له حيناً أن الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعر  
فينفسون الجيد منه على الشعراء، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً كما قال:

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء عملتهم شعراء  
أن أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء  
أو أسأنا فى مدحهم أنبونا وهجوا شعرنا أشد هجاء  
قد أقاموا نفوسهم لذوى المدح مقام الأنداد والنظراء  
وكان من هؤلاء محمد بن عبدالله الذى قال فيه:

أخالك إذ جودت فىك مدائحى منعت ثوابى حاسداً لى على شعرى  
أتحدنى تجويد رىط نسجته لتلبسه؟ يا للعجيب من الأمر؟

تذكر هداك الله أنى مادح وأنك ممدوح فلا تعد بى قدرى  
ينافس فى الشعر النظير نظيره وجل ملوك الناس عن ذلك النجر  
فإذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة  
صرخ متعجباً:

أذو آلة؟ فاستخدمونى لآلتى بقوتى، وإلا فارزقونى مع الزمنى  
أى أرزقونى مع العجزة والسقماء، وهذه نهاية البؤس والخيبة ونهاية  
الحيرة التى لا يهتدى فيها المسكين إلى سبب مريح، فلم يلقى له من عزاء إلا  
أن يوقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين ومحابة الأغنياء  
رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى رنة شريفة  
كذلك البحر يرسب فيه در ولا تنفك تطفو فيه جيفة  
وكرر هذا المعنى فى معارض شتى على قواف مختلفة، لأنه سكن إليه  
ووجد فيه عزاءه ولو إلى حين.

وينبغى أن نذكر هنا شيئاً لا بد من ذكره فى هذا المقام لأنه لازم لإدراك  
حقيقة الغضب الذى كان يستولى على نفس الشاعر المحروم إذا أجاد المديح  
ولم يظفر بالعطاء، فقد كان حق الشاعر فى العطاء معترفاً به يقبله الأمراء  
والوزراء ويقره العرف وتجرى عليه القدوة. فنحن لا نعرف اليوم ذلك الحق  
للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك غضبه وأسفه إذا حرم وتوالى عليه  
الحرمان، أما فى عهد ابن الرومى فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من  
هذه المقاصد أمر لا غرابة فيه ولا اعتراض عليه، فالحكم عليه إنما يكون  
بمقياس أيامه ولا بمقياس أيامنا التى لا يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز  
فيها الهجاء لشاعر محروم.

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومى أنه كان متطيراً غريب الأطوار لا

يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال العربون منهم يعتمدونه بالعبث ويتماجنون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من القال السيء .

يضحك من كل ما بكيت له كأن لذاته بالأمى

وكان بعضهم يصحبه بقرع بابه، فإذا سأله من الطارق؟ قال مرة بن حنظلة! فيمكث في بيته لا يريم عنه سحابة يومه! وكانوا يسوقون إليه رجلا أحذب كرية الرؤية يقابله بوجهه إذا خرج من منزله فيرتد على عقبه! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهجو ولكن بعد مصابرة وأعتاب. وكم قال لابن عروس:

يا ليت شعرى وليت شعرك إن قل  
وما ينفع الصارم اللسان إذا  
فارجع وبقيا أخيك باقية  
أو كما قال لبني السمرى:

يا بني السمرى لا تجشموني  
قد تجاوزت ما تجاوزت عنكم  
لا يغرنكم بجهلى حلمى  
إن لين المهز فى السيف أمضى  
ان تشير القصيد كل دفين  
وتغاضت على قذاكم جفونى  
وأرعوائى إلى حياتى ودينى  
بغراريه فى صميم الشئون

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما يبكيه ويتفكهون بما يحز فى قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية! لا شيء! لأن الأعراض هانت على أصحابها فى ذلك العصر فلا يباليون المذمة إلا أن يكون فيها معنى الاجترأ على الجاه والقوة، وهم أحرى الا يباليوها من شاعر كابن الرومى ليس أسهل عليهم من أن يقولوا عنه أنه هذيان ممرور، فيضيق ذرعاً بهم ويهجو كالمذفوع إلى غير ما يحب، ويظهر ذلك منه فى بعض القصائد كما يظهر من قوله:

لا يغضب لعمره من له خطر فليس يرضى بظلمى من له خطر  
كأنه يقول: لقد صبرت على عمرو فرضى الناس بظلمه إياى فإذا  
هجمته أنا الآن فما يحق لذى خطر أن يغضب له وهو منصف بينى وبينه.  
وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يردده إلى سوء حظه وإجحاف  
الأيام به كما قال حين رماه الناشئ بالوسواس:

أن أو سوس فحقيق يسعد القرد وانحس!  
أصبح الناشئ ممن يتغنى وهو أخرس  
نفقاً عند أناس تعسوا والدهر أتمس  
له على الدنيا وقل ما شئت وأظلم وتغطرس  
لم يقـدس منك شىء ولك الجـد المقدس  
كيف لا يشتد وسوا سى وإشـعارك تدرس  
وضياء الشمس لا يقبـس والظلماء تقبـس

فإذا عبث به العابثون وتحدثوا بنحسه لم يسره ذاك وحق له إلا يسر به  
وقال مناجزاً:

زعمت بأننى نحس وأنى مجيبك معلناً لا أتقिका

وانطلق يصخب ويثلب وهو فى رأيه معذور فى ذلك الجرم الذى جنوه  
عليه قبل أن يجنيه عليهم، ومعذور حتى من الحسد الذى كان لا يدأريه ولا  
ينكره ولكن يقول فى التماس المـعذرة له:

لا تلومن حاسداً، ألم النفس حس من النحس يا أخى شديد

وزد على ذلك فجائعه فى بنيه وأحبابه واحداً بعد واحد وهو أحوج ما  
يكون إلى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا

يفهمونه، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكه الزهيد امرأة كما جاء في بعض شعره. ويغضبه منزله الذى يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصنع.

وراغمنى فيما أتى من ظلامتى      وقال لى أجهد فى جهد احتيالكا  
فما هو إلا نسجك الشعر سادراً      وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا  
لهذا وأمثاله كثرت أهاجى ابن الرومى واشتد إقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذلك، يكاد لا يفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين فى صفحات الديوان، لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومى ملوماً على المدح أضعاف لومه على الهجاء. فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو ويتنقم، وراجع ترجمة المهجويين فى قصائدهم تجدهم كلهم أو أكثرهم لصوصاً لا ينقضى على أحدهم فى المنصب أشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من أرزاق الرعية الضعفاء، ثم لا تنقضى فترة أخرى حتى يسلط عليه لصوص أكبر منه فينكبونه ويستصفون أمواله كأنهم تغفلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الأموال، وإن فى كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وأثاماً جساماً لا يقال فيها أنها تخرص شاعر مغبون أو افتراء خصم متهم بالأقاويل، فكان الصدق عذراً للثالب الصادق فعذر ابن الرومى فى التشهير والتجريح أوجه من عذره فى الإطراء والمديح.

وقد اشتهر بالهجاء وأصبح له سلاحاً لازماً وقدرة معروفة بين شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعلمه. ولو عوفى فى نفسه ورزقه لما بقى له من الهجاء إلا ناحية هذه الفنية والأعيه الصبائية. فإنه على كل حال لم يحتقب قط من أدواته النية الخبيثة والطبع الشرير، أو هو على حد قوله:

لو أروض الشيطان أذعن كالـك  
 ولما ذاك أننى الرجل الشرـر  
 لب، أو العود عضه الكلوب (١)  
 ير منى الخنا ومنى الوثوب  
 بل لدى الإنصاف يشفعه الإحـ  
 سان ما قارب الألد الشغوب  
 ونعود فنقول: لو كان الرجل أكثر شراً لكان الناس أكثر اتقاء له واجتناباً  
 لكيده، فقلت دواعيه إلى سوء المقال وأعفى أعراضهم وأعفى لسانه فأراح  
 واستراح.

### هو وشعراء عصره:

عاصر ابن الرومى فى بيئته كثير من الشعراء أشهرهم فى عالم الشعر  
 والحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى والبحترى وعلى بن الجهم وابن المعتز  
 وأبو عثمان الناجم.

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه - أو لم يعرفوه - أثر  
 يذكر فى تكوينه غير اثنين فيما نظن، هما الحسين بن الضحاك ودعبل  
 الخزاعى.

فقد كان ابن الرومى معجباً بالحسين يروى شعره ويستلمح أخباره  
 ويذكرها لأصحابه، وكان ابن الرومى يافعاً يحضر مجالس الأدب ويتلقى  
 دروسه والحسين فى أوج سهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن  
 العراق. حدث محمد بن الفضل الأهوازى قال: "سمعت على بن العباس  
 الرومى يقول: حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم، فقلت حين يقول  
 ماذا؟ فقال حين يقول:

يا مستعير سوائف الخشف  
 إن لم أصح ويلي ويا حربى  
 أسمع لحفلة صادق الحلف  
 من وجنتيك وفترة الظرف

(١) العود الجمل المسن والكلوب المعمار.

فجحدت ربي فضل نعمته وعسبدته أبدأ على حرف

هكذا جاء في كتاب الأغاني - وجاء فيه أيضاً عن ابن الرومي أنه قال:

أنشدنا أبو العباس ثعلب قال أنشدوني حماد بن المبارك صاحب حسين  
بن الضحاك قال أنشدوني حسين لنفسه:

لا وحبيك لا أصا فح بالدموع مدمعا

من بكى شجوه استرا ح وإن كان مسوجعا

كبدى منم هواك أسقـم من أن تقطععا

لم تدع سورة الضنى فى للسقم موضعا

قال ابن الرومي: ثم قال لنا ثعلب: ما بقى من يحسن أن يقول مثل

هذا.

وروى عنه كتاب الأغاني روايات أخرى من هذا القبيل تدل كلها على

الإعجاب والاستملاح، ومثل ابن الرومي يعجب بشعر الحسين الأنيق المطبوع

ولكنه لا يتمزج بطريقته ولا يتزىى بزيه، لأن طريقة الأناقة والصفى غير

طريقة الإمعان والنفاذ التى طبع عليها ابن الرومي. فأنت تلمح أثر هذا

الإعجاب فى أبيات من شعر ابن الرومي كقوله:

يا وجتته اللتين من وهج فى صدغيه اللذين من دعب

فنعلم أنه نظم هذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضحاك من "وجتتى

صاحبه وفترة طرفه"

أو كقوله:

عيني شحا ولا تسحا جل مصابى عن البكاء

ترككما الداء متسكنا أصدق عن صحة الوفاء

فنعلم أنه نظمه وهو يذكر الأبيات التي روى في أولها لابن الضحاك:

لا وحبـيك لا أصـا      فـح بالدمـع مدمـعا  
من بكى شـجوه أسـرا      ح وإن كان موجـعا

وابن الضحاك يقول:

وكأنما نصب كأسه قمر      يكرع في بعض أنجم الفلك

وابن الرومي يقول:

فكأنما وكان شاربها      قمر يقبل عارض الشمس

فهو كان معجباً بطرائف ابن الضحاك ملتفتاً إليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التي طبع عليها ولم يزد في إعجابه على أن يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقية، وهو شيء غير اقتباس الطريقة والتشابه في السليقة.

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين، ولم نر في تاريخه ولا في تاريخ الحسين ما يشير إلى تلاقيهما في بغداد حيث عاش ابن الرومي معظم حياته، أو في غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك.

أما دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين، أحدهما القصيدة الطائية نظمها دعبل حين اتهم "خالداً" بسرقة دبكة وإطعامه لضيوفه وقال في مطلعها:

أسر المؤذن خالد وضيوفه      أسر الكمي هفا خلال المايط  
بعثوا إليه بنيتهم وبناتهم      ما بين ناتقة وآخر سامط  
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا      خاقات أو هموا كتائب ناهط  
أكلوه فانتزعت به أسنانهم      وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومي فيها وأطالها وبلغ بها نيماً وستين بيتاً وغير بعض ألفاظها، فمما قال في معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته:

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت      أوتاره لنادف ومــــرابط  
متجملاً لدجاجه متجلداً      كتجلد المجلود بين ربائط  
ولقد رمته يوم ذلك قدرهم      بغطائط من غليسه وغطامط  
حملوا عليه كل ماء عندهم      وفرات كوفتهم ودجلة واسط  
وأها لذاك الديك بين مساقط      منه عهدنا وبين ملاقط  
قوام أسحار مؤذن حارة      "وصال" زوجات كمي مآقط  
ينفى مناعسه بنفس شهمة      ويشاهد الهيجا بجأش رابط  
والموضع الآخر الذي عارض فيه دعبلأ أبيات تائية قال دعبل في  
مطلعها:

أتين ابن عمرو فصادفته      مريض الخلائق ملتائها  
فعرضها ابن الرومي وزاد عليها من أبيات:

قواف أبي الوغد أبريزها      فأخرجت للوغد أخبائها  
أوبد قد أخنست قبله      كهول الرجال وأحداثها  
.....

ولا جرم لى أن أساءت جنا      ة مزرعة كان حرانها

ونشأ ابن الرومي ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغرابة أخلاقه ومخاطرته وتطويفه فى الآفاق، مستحسن الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية، مفضل على المحدثين من طبقتة كما قال البحترى وكان يتعصب له "دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل

أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم". وكان دعبل  
فيما عدا ذلك متشيعاً لآل علي غالباً في تشيعه ف جذب ذلك كله نفس ابن  
الرومي الفتى نحووه وحبب إليه محاكاته ومجاراته، وربما كانت الرغبة في  
مجاته إحدى دواعيه إلى الهجاء.

ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين ولا نعلم أنهما تعارفا  
أو كان بينهما لقاء.

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومي وكان لهما أثر يذكر في  
تكوينه. أما الآخرون فالثابت أنه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما  
وهما البحتري وأبو عثمان الناجم. عرف البحتري في بيت الناجم، وكان هذا  
صديقاً له بقي على صداقته إلى يوم وفاته، ورواية يحفظ شعره وأخباره  
ويجري على طريقته في بعض تشبيهاته - فسأله البحتري أن يعرفه إلى ابن  
الرومي ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة لأن البحتري  
كان يدل على ابن الرومي بمكانة من الخلفاء والأمراء، وكان ابن الرومي لا  
يطبق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة، فمن قوله فيه "

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها	من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها	ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هدر البناء إذا	أضحوا على سعف الجدران في صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له	وللأوائل ما فيه من الذهب
.....	.....

عبد بغير على الموتى فيسلبهم	حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما أن يزال تراه لابساً حللا	أسلاب قوم مضوا في سالف الحقب

ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسألته وحره ويقول له  
بعد أفذاع كثير:

يا بحترى لقد أقبلت منقلباً      يوم اكتسبت هجائي شر منقلب

قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلا      حلو المذاقة، فاعرفنى لدى الغضب  
تعرف فتى فيه طوراً مجتنى سلع      للمجتنين وطوراً مجتنى رطب

ونظن أن المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء، وإنما أنس ابن الرومى إغراء من العلاء ابن صاعد بالبحترى، لأنه خاطبه فى هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحترى ويبحث عن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت:

أراك لم ترض ما أهدى له نفر      من شتم أم لثيم خيمها واب

فأرضى ابن الرومى نفسه وأرضى العلاء بهجائه، وكان رد البحترى عليه ما علم القراء من إهدائه تحت المتاع وكيس الدراهم وإبلاغه " أن الهدية ليست ثقية منه ولكن رقة عيله لأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط "

عرف ابن الرومى البحترى وابن الرومى شاعر ناضج مشهور بالافتنان فى المعانى والقدرة على الهجاء وكان البحترى يحب مجاراته فى بعض قصائده. فقال له فى أول لقاء بينهما أنه عزم على أن يعمل قصيدة وزن قصيدته الطائية فى الهجاء فنهاه ابن الرومى عن ذلك لأنه ليس من عمله. فإذا كان بينهما اقتباس، أو معارضة فالبحترى هو المقتبس وهو الراغب فى المعارضة. على أننا لا نحاله استفاد من ابن الرومى شيئاً يزيد فى مذهبه الذى نبغ فيه لأنهما نمطان متباينان، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه.

أما على بن الجهم " المتوفى سنة ٢٤٩ "، فقد كان بينه وبين ابن الرومى برزخ واسع من اختلاف المذهب فى الدين والشعر. فابن الرومى متشيع وابن الجهم ناصب يذم علياً وآله " ولا يلتقى الشيعى والناصب " كما يقول ابن

الرومى . . وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى " أهل العدل والتوحيد " منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول فى زعيمهم أحمد ابن أبى داود :

ما هذه البدع التى سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا

وابن الرومى كما مر بك من هذه الجماعة. فمذهبه فى الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه فى مجاراته، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والترعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومى الأغضاء عنه وهو ناشئ يتلمس القدوة ويخطو فى سبيل الشهرة. ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم فى فخره ومزاجه، فيخيل إليك أنك تقرأ كلام جندى يتنفج أو يعربد . . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضون أوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر، وليس بين هذه الطيبة وطبيعة ابن الرومى مسرب للقدوة أو للمقاربة فى الميل والإحساس، ولا كان فى شعر ابن الجهم شئ يشعر مثل ابن الرومى أنه يقتدى به ويحتاج إلى مجازاته، فيميل به هذا الشعور إلى الإعجاب بالشاعر الذى أبعده عنه المذهب والمزاج.

وقد ولد ابن المعتز فى سنة سبع وأربعين ومائتين، فلما أيفع وبلغ السن التى يقول فيها الشعر كان ابن الرومى قد جاوز الأربعين أو ضرب فى حدود الخمسين، ولما نبغ واشتهر له كلام يروى فى مجالس الأدباء كان ابن الرومى قد أوفى على الستين وفرغ من التعليم والاقتباس. ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتز هو السابق فى الميلاد لما أخذ منه ابن الرومى شيئاً أو لكان أفسد سليقته بالأخذ عنه، لأن ابن المعتز إنما امتاز بين شعراء بغداد فى عصره بمزايه الثلاث، وهى البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس، وابن الرومى لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشبيهات التى تدور على الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات.

ويجوز أن الشاعرين لم يتعارفا ولم يتلاقيا في مجلس، لأن ابن الرومي كان قليل الغشيان جداً للمجالس التي كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود. فضلا عن تفاوت السن والخطبة، وفضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما، وهو أن ابن الرومي هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها. وكان ابن الرومي من حزب المستعين لأن بغداد كانت معه وهي وطن ابن الرومي، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه. ونحن نذكر هذا السبب الأخير للإحاطة به ولا نعيره كبير التفات، لأن ابن المعتز كان طفلا رضيعاً حين تقابل أبوه وعمه، ولا يحتمل كثيراً أنه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومي في تلك الأيام.

### ممدوحوه

لابن الرومي ممدوحوه كثيرون يزيدون على الأربعين، يطول بنا البحث ولا ننتهي إلى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجملنا تواريخهم إجمالاً سريعاً بله التفصيل والأنعام، ولو كان للمدح في زمن ابن الروي بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نعني بتراجم الأشخاص الذين حركوا في نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه أكباره وثنائه، لأن العناية بتراجمهم في هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثنائه، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح إلا الإرضاء والتفنن في معاني التعظيم، فمن العبث أن نحصى هنا تراجم لا تزيدنا علماً بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصوداً في هذا المقام، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأسترتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة في ترجمة حياته، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب، وكلاهما من أكبر الأسر التي عرفت في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية.

قال طاهر أسرة قديمة تنتسب إلى أمراء الفرس الأولين ويذكر منها في

عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون وأول من نبغ منها واشتهر فى عهد بنى العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزىق بن ماهان، أسلم جده رزىق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعى وإلى سجستان فنسب إليه ولقب بالخزاعى لهذا السبب لا لانتمائه إلى قبيلة خزاعة من جهة النسب.

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من أعمال "مرو" سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب والياً يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة. ثم كان الخلاف بين الأسين والمأمون فأبلى طاهر فى خدمة المأمون - الفارسى آلام - أحسن بلاء وأخلص له ونصح فى ولائه وتوطيد ملكه، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت ودولة طاهرية طاهرية فى حكومتها لا تربطها ببغداد إلا خطبة المنبر، وقيل أن طاهر أقطع الدعاء للخليفة يوماً فسمه خادماً معه كان موكلًا به من قبل المأمون فأصبح ميتاً.

وكانت لآل طاهر مع ولاية الشرطة فى بغداد وهى من الولايات النافعة لذوى النفوذ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الإقليم الخطير الشأن فى حياة الدولة العباسية.

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ فى رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابهه أباه فى النجدة والإقدام وبذته فى الأدب والمروءة. تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة، فوهبه كله وفرقه فى الناس ورجع صفرًا من ذلك فغاض المأمون فعله فدخل إليه يوم مقدمه فأنشدته أبياتًا قالها فى هذا المعنى وهى:

نفسى فداؤك والأعناق خاضعة	لنئيات أبيعاً غير مهتضم
إليك أقبلت من أرض أقيمت بها	حولين بعدك فى شوق وفى ألم
أقفوا مساعيك اللاتى خصصت بها	حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيها أننى تبع	لما سنت من الأنغام والنعم

ولو وكلت إلى نفسى عييت بها لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم  
"فضحك المأمون وقال والله ما نفست عليك مكرمة نلتها ولا أحدىثة  
حسن عندها ذكرك، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افترت ولم تقدر على  
لم شعثك وإصلاح حالك، وزال ما كان فى نفسه" . . ويقال أن البطيخ  
"العبدلاوى" المعروف بمصر منسوب إليه ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيعه  
كما يقول ابن خلكان .

ولعبد الله شعر جزل وتلحسن جيد وهو القائل "ينبغى أن يبذل العلم  
لأهله ولغير أهله، فإن العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله" ومن  
كلامه "سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان" .

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذى أدركه ابن الرومى ومدحه وظن أنه  
ينفس عليه شعره قال له :

أتحسدنى تجويد ريط نسجته لتلبسه؟ يا للعجب من الأمر  
تذكر هداك الله أنى مادح وإنك ممدوح، فلا تعد بى قدرى  
ونحسب أنه لم يظلمه، لأنه تعود أن ينظر فى شعر مادحيه نظرة الناقد  
المتعصب، بعث إليه حاجبه محمد ابن أبى بأنوار من بستانه وريحان وكتب  
معه :

قد بعثنا بطيب الريحان خير ما قد جنى من البستان  
قد تخيرته لخير أمير زانه الله بالتقى والبيان  
فوقع على ظهر رقعة :

عون يا عون قد ضللت عن الق صد وعميت عن دقيق المعانى  
حشو بيتك قد وقد فالى كم؟ قدك الله بالحسام اليمانى<sup>(١)</sup>

(١) الموشح للمرزبانى .

وكان محمد عظيم النفوذ في الدولة تميل الخلافة حيث يميل، نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك أن يتفرد بالملك وحده، ثم ارتاب في المستعين فتخلى عنه فلم يجد المستعين بداً من خلع نفسه وتمت الغلبة عيه لأخيه. وينسب إليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد في بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز: "لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره!"

ومات محمد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين أي حين كان ابن الرومي في الثانية والثلاثين، قال ابن الأثير: "في ليلة أربع عشرة من ذي الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التي مات بها قروحاً أصابته في حلقة وراسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل، ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن طاهر. فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقي فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله. ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله فأمر عبيد الله للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم".

وعبيد الله هذا كان شاعراً كأخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته، وكان يقول البحتري ويناجزه، وهو الذي نظم ديواناً على الحرف في شكر العلاء صاعد فعهد العلاء إلى ابن الرومي بالرد عليه، وهو القائل:

إن الأمير هو الذي يبقى أميراً بعد عزله  
أن زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

وكان كأخيه محمد في نقد الشعر ولا سيما إذا مدح به غيره، فهو الذي سمي قصيدة ابن الرومي النونية في مدح إسماعيل بن بليل بدار البطيخ!

لكثرة ما ذكر فيها من أسماء الفاكهة، فظرف في النكتة وإن لم ينصف في نقد القصيدة.

وقال ابن خلكان في ترجمته: "... كان عبيد الله المذكور أميراً ولي الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه، وكان سيداً وإليه انتهت رئاسة أهله، وهو آخر من مات منهم رئيساً، وله من الكتب المصنفة كتاب الإشارة في أخبار الشعراء وكتاب رسالة في السياسة الملوكية وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره، وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية، ومن شعره ما ذكره ابن رشيقي في كتاب العمدة في باب الاستطراد فقال: ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد:

أبى دهرنا إسعافاً في نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم  
فقلت له نعماك فيهم اتهمما ودع أمرنا، أن المهم المقدم

" .. وله ديوان شعر، ونقتصر من نظمه على هذا القدر، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلثمائة ببغداد . . . "

ولعبيد الله أخ يسمى سليمان هو الذي هجاه ابن الرومي لأنه أخلف رجاءه في رد داره. وكانت بينه وبين عبيد الله قطيعة وملاحاة شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومي هذا الصلح في قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض الأبيات . .

وانتهت إلى عبيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان، إلا أن دولتهم في خراسان ذهبت منهم في أيامه واستولى عليها في سنة تسع وخمسين

ومائتين ذلك المخاطر الجريء يعقوب بن الليث، الملقب بالصفار من الصفرة، لأنه كان في صباه تاجراً فقيراً يعمل في النحاس، واقتصرت ولاية عبيد الله وسطوة قومه على الشرطة في بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال في ذلك البيت المجيد، ولحق ابن الرومي من ذلك ما لا بد أن يلحقه منه، فضلاً عن حسابانه عليه من عشرات جده ودلائل شؤمه!

\*\*\*

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لا شأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش، جاء في الفخرى أنهم كانوا "من قرية من أعمال أواسط وكانوا نصارى ثم أسلموا".

وعملوا في الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان.

وكان الحسن كاتباً شاعراً ولاء محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه فولاه البريد في الموصل. وكانت بينه وبين أبي تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها:

فلن تراب ذاك القبر يحوى	حبيباً كان يدعى لى حيبا
لسنا شاعراً فظناً أديباً	أصيل الرأي فى الجلى أرببا
إذا شاهدته رواك رواك فيما	يسرك رقعة منه وطيبا
أبا تمام الطائى أنا	لقينا بعدك العجب العجبا
فقدنا منك قرماً لا نرانا	تصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقرباً مجدوداً حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو فى الرابعة عشرة. حدث ابنه عبيد

الله عنه أنه قال: "كان مبدأ سعادتي أنى كنت - وأنا صبى - بين يدي محمد بن ترداد وزير المأمون. وكنا جماعة من الصبيان بين يديه إذا راح الليل إلى داره بات واحد منا في دار المأمون بالثوبة، لمهم عساه يعرض في الليل. وكانت ليلة نوبتي فخرج خادم وقال: ها هنا أحد من نواب محمد بن يزداد؟ فقال الحجاب له نعم! ها هو ذا، فأدخلني إلى المأمون فقال لى: اعمل نسخة فى المعنى الفلانى، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه. فقال: فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته وأحضرتة إليه. فلما رآنى قال: كتبت النسخة؟ فقلت: بل كتبت الكتاب. فقال: يبيضته! قلت نعم، فزاد فى نظرة إلى كالمتعجب منى، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه إلى، وقال: ما أحسن ما كتبت يا صبى! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر، وخط عليهما بقلمه، فأخذت التاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجتته بالكتاب، وكان قد ظن أنى أبطله وأكتب غيره، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لى: يا صبى! لا أدرى من أى شىء أعجب! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن حظك أم من سرعتك، بارك الله فيك! فقبلت يده وخرجت، وكان ذلك أول علو منزلتى وصار المأمون لا يجرى مهم إلا قال: "هاتوا سليمان بن وهب".

واستورزه المهتدى "ولقبه الوزير حقاً لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها"<sup>(١)</sup>. استكتبه يوماً عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها: أحسنت يا سليمان، ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل! وذاك أن سليمان كان إذا ولى عاملاً أخذ منه مالا معجلاً وأجل مالا إلى أن يتسلم عمله. . ونكبه الواثق وحبسه فقال وفى هذا الشعر غناء:

(١) الأغانى.

أوائب الدهر أدبتنى وإغما يعوظ الأديب  
 قد ذقت حلواً وذقت مرراً كذلك عيش الفتى ضرور  
 ما مر ربؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب  
 ثم خرج من الحسن ليلة مات الوائق، ولكنه كان مطموعاً فيه لكثرة ماله  
 واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات في حبسه سنة اثنتين وسبعين  
 ومائتين، وقيل سنة إحدى وسبعين . . ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد  
 الله تذاكر جماعة أنه إنما استكبهما ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا  
 وودائعهم فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومي وكان  
 حاضراً:

ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم آتيه وسد طريقه  
 ومن جاور الماء الغزير مجمه وسد مغيكن الماء فهو غريقه<sup>(١)</sup>  
 وسليمان بن وهب هو أبو عبيد الله وجد القاسم، وكلاهما وزر  
 للمعتضد وتلقى مدائح ابن الرومي الكثيرة، ولا سيما القاسم، فإنه كان  
 صاحب القسط الأوفر من جميع مدحه.

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة في عهد المعتضد ثم بويع المعتضد  
 سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها إلى أن مات سنة ثمان  
 وثمانين ومائتين وكان كاتباً حاذقاً وسائساً حصيفاً وفيه يقول الشاعر:

إذا أبو القاسم جادت يدها لنا لم يحمد إلا جودان البحر والمطر  
 وإن مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان، السيف والقدر  
 وإن أضاءت لنا أضواء غرته تضاءل النيران الشمس والقمر  
 من لم يبت حذراً من حد صولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر

(١) الأغاني.

ينال بالظن ما يعى العيان به والشاهدان عليه العين والأثر  
ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يتأصل شأفه أولاده ويستصفي  
أموالهم، فحضر القاسم ابنه واستعان بيد المعتضدى وكتب خطاباً بألفى ألف  
دينار فاستوزره المعتضد<sup>(١)</sup>.

قال صاحب الفخرى "كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن  
أفاضل الوزراء، وكان شهماً فاضلاً لبيياً محصلاً كريماً مهيباً جباراً، وكان  
يطعن فى دينه . . .".

وقال ابن خلكان: "كان الوزير المذكور عظيم الهيئة شديد الإقدام سفاكاً  
للدماء، وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال  
إلا نقمه. وتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين فى خلافة المكتفى وعمره نيف  
وثلاثون سنة. وفى ذلك يقول عبد الله بن الحسن بن سعد:

شربنا عيشه مات الوزير سروراً وتشرب فى ثالثه  
فلا رحم الله العظام ولا بارك الله فى ورائه  
وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب للمسعودى، وفى  
هذا الكتاب أن القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المتكفى والخليفة يجهل  
ذلك ولا يريد. وكان القاسم يغريه به "فوكل به من يراعى خيريه وما يظهر  
من قوله إذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى:  
تلوم على ترك الغنى بأهلية طوى الدهر عنها كل طرف وتالد  
إلى أن يقول:

ذرىتى تجئنى ميتتى مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد  
فإن نفيسات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأسود

(١) الفخر.

وإن الذى يسمو إلى درك العلا ملقى بأسباب العلا والمكابد  
فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب: يا سيدى أين أنت مما تمثل  
به يزيد ابن المهلب:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسى مثل أن أتقدما  
فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب: يا سيدى ابن المهلب وأخطأ  
قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول:

وما بى شىء فى الوغى غير أننى أخاف على فخارتي أن تحكما  
ولو كنت مبتاعاً من السوق مثلها لدى الروح ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفى ضحك وقال: قد قلت للقاسم ليس عمى  
عبد الواحد ممن تسمو همته إليها . . أطلقوا لعمى كذا وكذا . فلم يزل القاسم  
بعبد الواحد حتى قتله .

وكان القاسم مكروهاً على خلاف أخيه الحسن الذى كان يحبه الناس  
ويحسنون الظن به . فلما مات الحسن قال أبو الحارث التوفلى:

قل لأبى القاسم المرزا قابلك الدهر بالعجائب  
مات لك ابن وكان زيناً وعاش ذو الشين والمعائب  
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

قال أبو بكر الصولى النديم: " وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجلاً  
صدوقاً . "

ونظم آخر فى هذا المعنى فقال:

قل لأبى القاسم المرزا وناد يا ذا المصيبتين  
مات لك ابن وكان زيناً وعاش شون وأى شين  
حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليسدين

ولكن عبيد الله أباهما كان على رأى يخالف رأى الناس فى ولديه، فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن، حتى راجعه فى ذلك ابن الرومى بقصيدة سبقت الإشارة إليها، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وقدره أنه أصلح للحكم فى ذلك الزمان، وعلم أن الخلق الكريم أداة لا تنفع فى هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه.

والقاسم هذا هو الذى أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومى بالسم لأنه أشفق من فلتات لسانه.

## وفاته

يقول ابن خلكان فى تاريخ وفاة ابن الرومى: "توفى يوم الأربعاء لليتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ودفن فى مقبرة باب البستان".

فأى هذه التواريخ هو الصحيح؟

إن الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه فى هذا الشك الذى لا مسوغ له اعتماداً على روايته بغير بحث فى شعر الشاعر ولا فى كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان. ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومى أثبت لنا أنه بلغ الستين وعاش إلى ما بعد سنة ثمانين إذ يقول:

طربت ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابى بابتين ستيب أشيب  
فهو لم يمت فى سنة ست وسبعين على التحقيق، ولا يظن أن الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمساً وخمسين أو ستاً وخمسين، فإنه ذكر الخمس والخمسين فى موضع آخر حيث قال:

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر وشبت فألحظ المها عنك نفسر  
وليس من المعروف عنه أنه كان يعبى بنظم ما يريد.

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودى لعرف منه أن ابن الرومى كان حياً بعد ست وسبعين، فلا محل للقول بموته فى تلك السنة. فقد جاء فى تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام مع ابن الحصاص فى ذى الحجة<sup>(١)</sup> فى سنة إحدى وثمانين ومائتين، ففى ذلك يقول على بن العباس الرومى:

يا سيد العرب الذى زفت له باليمن والبركات سيدة العجم  
إلى آخر الأبيات، وهذا فضلاً عن مقترعات أخرى نظمها الشاعر فى العرس الذى احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين.

فمن المحقق إذن أن ابن الرومى تجاوز سنة ست وسبعين، ولم يبق لنا إلا أن نبحث فى السنتين الأخيرين أى ستى ثلاث وأربع وثمانين.

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية، وهذا مما يرجح وفاته فى سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين.

ويقوى هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليتين بقيتا من جمادى الأولى فى تلك السنة كما جاء فى تاريخ الوفاة.

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الإفرنجى فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو، أى يوافق إبان الصيف فى العراق، وابن الرومى مات فى الصيف كما يؤخذ من قول الناجم إنه دخل عليه فى مرضه الذى مات فيه وبين يديه ماء مثلوج، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو "يوم الأربعاء لليتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين".

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومى بالسم، وأن الذى سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه.

(١) الطبرى يقول أن دخولها بغداد كان لليتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢.

ولكن الروايات فى هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب، فالرواية التى أوردها ابن خلكان تقول: أن الوزير أبا الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وقلتات لسانه بالفحش ففس عليه ابن فراش فأطعمه خشكناجحة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم وهم بالخروج، فقال له الوزير: إلى أين تذهب فقال إلى الموضع الذى بعثتنى إليه، فقال له: سلم على والدى! فقال له: ما طريقى على النار . . .

وضعف هذه الرواية ظاهر. لأن عبيد الله بن سليمان مات فى سنة ثمان وثمانين<sup>(١)</sup> أى بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومى بأربع سنوات، فكان حياً عند وفاة الشاعر ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدى ووالده بقيد الحياة.

والرواية التى أوردها الشريف المرتضى فى أماليه أصح من هذه الوجهة، لأنها تقول أن عبيد الله كان حياً عند موت ابن الرومى وأنه هو الذى أوعز بقتله، ولكنها تقول أيضاً أنه قد اتصل "بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس الرومى وكثرة مجالسته لأبى الحسين القاسم. فقال لأبى الحسين: قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا. فدخل يوماً عبيد الله إلى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشه من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلاً فقال لأبى الحسين بينه وبينه: إن لسان هذا أطول من عقله، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاريه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته، فأخرجه عنك. فقال: أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا، فقال يا بنى! أنى لم أرد بإخراجك له طرده. فاستعمل فيه بيت أبى حية النيمرى.

فقلن لها سرّاً فدينك لا يرح  
سليماً، وإلا تقتليه فلمى

(١) راجع الفخرى.

فحدث القاسم ابن فراس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه بأهاج قبيحة، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك قسمه في الخشكناج فمات . . قال الباقتاني: والناس يقولون ما قتله ابن فراس وإنما قتله عبيد الله.

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك. لأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومي سنوات وقد مدحه ابن الرومي وتردد عليه وتشفع لديه بين والديه، فلا حاجة به إلى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء في هذه الرواية. أما الأخبار الأخرى المنشورة في الكتب فهي مزيج مرتبك من هاتين الروایتين.

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من هذا الخلف والاضطراب، فإذا قلنا أن عبيد الله هو القاتل كما نقل الباقتاني فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذي قال له: سلم على والدي وليس ولده القاسم، فينتفى بذلك موضع الضعف في الرواية الأولى، ولكننا نفيه بغرض لا يجوز الاعتماد عليه.

وإذا أردنا أن نمزد بين الروایتين ونسقط منهما ما يجب إسقاطه فالخلاصة منهما أن عبيد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز إلى ابنه أن يسمه لأنه كان أقرب إلى القاسم وابن الرومي وإنما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ.

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز إغفالها في هذا المقام وهي تبيح لنا أن نسأل: ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومي مات ميتة طبيعية تشبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه؟ فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته نعلم أنه كان يسكو من إلحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال:

غداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

وإنه كان قد أعد ماء مثلوجاً لأنه "قلما يموت إنسان إلا وهو ظمآن" وكان يقول فيما روته الأملالي وهو يشرب الماء ولا يروى:

وأراه زائداً في حرقتي فكان الماء للنار خطب

والظماً وإلحاح البول عرضان من أعراض "مرض السكر" وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد أكل الحلوى والإفراط فيها، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الإصابة به لأنه كان منهوماً بالحلوى والأطعمة الثقيلة، مستسلماً للشهوات مسرفاً في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وقصده الطيب وفسد الجرح كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته. ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولو احقه لما كان يعترى ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالصدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاه، فإذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة، وإن كان الطعام وحده كافياً للقضاء على رجل جاوز الستين في شيخوخته متهدمة مهملة طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً في أيامه.

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح إغفاله في تحقيق وفاة الشاعر. فهي احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل.

أما أن القاسم كان أهلاً لأن يغدر بابن الرومي وأن ابن الرومي كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المعتال فهو احتمال جد قريب، فالقاسم جرى مستخف بالدماء وابن الرومي قانط سريع الغضب. وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلاً كابن الرومي حين أقبلت الدولة عليه وعلى أبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا في شأن من الصولة والأبهة غير شأنهم الذي كانوا فيه، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومي في عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس في أيام

التطلع والانتظار، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم فالوشاية فالمبالغة فى الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد من الأمير الذى ليس بين وعيده وإنجازته عائق من خوف ولا محاسبة ضمير. وسلسلة القصائد التى تشفع بها ابن الرومى وسأل العمل واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لا فائدة من هذا الترتيب. فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشايات التى تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومى والخانقون عليه لهجائه، فأمعن فى جفائه والإعراض عن توسلاته وشفاعاته، فلم يفلح ابن الرومى فى استعطافه بمثل قوله:

بلغ البغاء على حيث أرادوا      والله كائدهم بما قد كادوا  
وهو الشهيد على أنى لم أقل      بعض الذى قد أبدأوا وأعادوا  
وهب السعاة أتوا بحق واضح      أين الكرام؟ أبدلوا أم بادوا  
.....

عفو الملوك عن الهجاء مدائح      مدحوا نفوسهم بها فأجادوا  
ولم يفلح فى استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير.

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومى بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ما وشى به السعاة إليه وما وشوا به إلى القاسم:

تحدثت الإملاء أنك حسابى      على غير إجرام وأنتك مغتالى  
وما قيل إملاء الرجال وقالهم      بأسهل من قيلى عليك ومن قالى  
ثم يستطرد إلى الترضى والاستعطاف:

أخالك لو عاينتني حفيرتى      بكيت عظامي الباليات وأوصالى  
وسرك أن أحيا كماكنت مرة      ببذل الفداء الجزل والثلث الغالى  
فلا تجفنى حيا ولا تبك رمتى      كمنصرف عنى يسائل إطلالى

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومي وتذكيره بسالف  
المودة:

أيقنتلى من ليس لى منه ناصر عليه، وأعوانى عليه مكارمه  
أبى ذاك أن الحكم بينى وبينه وأن علو القدر فى يخاصمه  
وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير  
صغير فى حجمه ولا فى معانيه وابتكاراته، وابن الرومى فى كل ذلك لا يرى  
من القاسم إلا:

غضيا ألع من السحاب الأسحم ورضى أعز من الغراب الأعصم  
فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل ما فى جعبته من قذع أخفه:  
يا من إذا ما رأته عين والده بين الرجال أتقاهم بالمعاذير  
أقسمت بالله أن لو كنت لى ولدا لما جعلتك إلا فى المطامير  
وقال فى آل وهب عامة:

متى آل وهب يرتجى الرى حائم إذا كتمم ملاك سبل المحامد  
واتهمهم فى إسلامهم لأنهم كانوا قديماً نصارى فأسلموا فقال فيهم من  
هذه القصيدة:

وأحييتم دين الصليب وقمتمم بتشيد "بيعات" وهدم مساجد  
وأبطال ما كان الخليفة جعفر تخيره زيا لكل معاند  
يشير إلى أبطالهم زى أهل الكتاب الذى أمر به الخليفة المتوكل فى أيام  
غلوائه ونقمته على أصحاب النحل جميعاً وقراء الفلسفة وعلم الكلام.

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن  
قتل ابن الرومى إذا استطاعه، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير

جريرة ودبر لذلك تدييره الذى لم يعلم به الخليفة إلا بعد موته، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو بالذى يتردد فى إنجاز وعيده أو يعجز عنه، وليس ابن الرومى بالذى يتخذ الحيلة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفًا وينخدع فى ظواهره بغير عناء.

وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة:

ذهب ابن الرومى إلى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و "لا مفر من الموت ولا من قضائه المحتوم" كما قال وغلط عليه الطبيب أو عز عليه دوائه فكانت إصابة المقدار. فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة: نفسًا يسورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال من خوف الألم فى ألم . . اطمانت إلى القضاء المحتوم، وأبت أن تطمئن إلى آلامه وصرعته، فاستحضرت المدينة الرميضة تحاول ان تتعجل بها الموت إذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزله، ولم يخش فى ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب، وللساعة عندها "هول دونه الهول" وبعدها حساب عسير لا شك فيه.

تلك خاتمة الترجمة التى استخرجناها من شعر ابن الرومى وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا يستخرج من شعر شاعر غيره. فكأنما انتزاعها من قبضة العدم انتزاعًا وتثبيت بها كما تثبيت بالحياة فغلب عليها إهمال التاريخ غلبًا . . والفضل فى ذلك لتلك الملكة الفنية التى خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها فى سجل الفنون، التى أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواسًا يبالغ فى تحريره واستيفائه كما يبالغ كل وسواس فى التوكيد والتقرير.